الزعر في الشام ومصر في العصر المملوكي

Zo'ar in Bilad Al-sham and Egypt During Mamlukes Period

د. عامر نجيب موسى بركات

جامعة بيرزيت

طباعة وتجليد مكتبة حنين

كانون الثاني 2020

الزعر في الشام ومصر في العصر المملوكي

Zo'ar in Bilad Al-sham and Egypt During Mamlukes Period

د. عامر بركات

جامعة بيرزيت

طباعة وتجليد مكتبة حنين

كانون الثاني 2020

فهرست المحتويات

الزعر في الشام ومصر في العصر المملوكي

المقدمة:

ينقسم المجتمع في العصر المملوكي إلى طبقتين من حيث الإطار العام، وهما الطبقة العسكرية الحاكمة وجميع من يرتبط بها او يقيم علاقات مباشرة أو غير مباشرة مع هذه الطبقة ، وتتميز هذه الطبقة باستخدام أقصى أشكال العنف ضد بعضها وضد الفئات الأخرى من أبناء المجتمع، وعادة ما تحكم بالحديد والنار، وتمجد الروح العسكرية وهو ما ينسجم مع طبيعة نشأتها ، وتضع كل ما يمتلكه المجتمع من مقدرات تحت يدي أفرادها ومن يتبعهم، وتتميز كذلك بالهيمنة على الثروة من خلال نظام الاقطاع العسكري ،الذي يُحوّل جميع المجتمع الى آلات إنتاجية وعبيد في خدمة هذه الطبقة، ويساعد هذه الطبقة فئة علماء الدين ، الذين سرعان ما قبلوا تحويل أنفسهم إلى مطايا في خدمة الحكام المستبدين ، وبدأوا بالعمل على تبرير أعمال هذه الطبقة باسم الدين ، إما من خلال الخطب أو من خلال الفتاوى . كما ينضم إليهم فئة كبار التجار وبخاصة تجار العبيد.

أما الطبقة الثانية في المجتمع فهم طبقة العامة أو الأراذل او الغوغاء أو الرعاع، الذين يشكلون معظم الناس ، وهم عبارة عن أجساد مُسّخرة لخدمة الطبقة الأولى، وقد يكون منهم صاحب ثروة، أو من الحِرَفيين وأصحاب الصنائع والمهن والفئات الاجتماعية المُهمشة ، التي لا تحظى بأية مكانة أو قيمة اجتماعية مُعتبرة.

ومن هذه الجماعات فئة الزعر، وهم عبارة عن أدوات قتل دون استخدام للعقل، وجماعات من الجهلة أو المتشردين ، الذين احترفوا الفتوة كوسيلة للتكسب ، وبالتالي فإن القيم والأخلاق والآداب والعادات الاجتماعية لا قيمة لها في مفاهيمهم وسلوكياتهم، لأن المتحكم والضابط لهم الدينار والدرهم.

ومصطلح الزعر أو الزعران قديم حديث فكما كان عبارة عن تلك الجماعات الإجرامية التي تنبثق إما من الفئات المهمشة أو من خريجي السجون ، وعادة ما يتجهوا نحو التعاون مع السلطة ، خاصة إذا ما كانت فاسدة ، لتنفيذ جميع الأعمال اللاأخلاقية والقذرة ، ويجدون في العلاقة مع أصحاب السلطة الوسيلة لإشباع رغباتهم الداخلية بتملك السلطة ولذلك فهم لا يختلفون كثيراً عن الزعران في أيامنا الحالية من الحكام الذين يستسيغون قتل ابناء شعبهم، والتآمر مع الغرب من أجل مصالح شخصية على حساب الأمة، ومن الحكام ورؤساء الدول في الغرب خاصة الساسة الأمريكيين الذين رهنوا أنفسهم لخدمة الدولة الصهيونية العنصرية ، مثل مساعدي الرئيس الأمريكي ترامب ، والجنود المستعربة في الجيش الصهيوني ، الذين لا يزيدون عن كونهم مجموعة من القتلة المرتزقة المحترفين ، الذين يغتالون ويقتلون الفلسطينيين تحت ذريعة حماية الأمن القومي والدفاع عن النفس ، مع أن الواحد منهم كثيرا ما لا يعلم فعلا لماذا أرسِل لاغتيال شخص معين ، والزعران الذين ينتشروا بين المتظاهرين بهدف رصد المتظاهرين السلميين، وإحداث الفوضى بينهم لتنفيذ جرائم قتل ضدهم ، وإرسال التقارير للمخابرات التابعين لها ، بهدف واحد هو الحصول على مبلغ بسيط من المال ، ودون تكليف أنفسهم التفكير في لماذا يفعلون ذلك ، وبذلك فإن معظم ضحايا هذه الفئة من المجرمين هم ضعفاء

الناس ، إذ كثيراً ما يتعاونون مع الأنظمة الاستبدادية والقمعية في عالمنا العربي ، خاصة في الفترة الحالية ، حيث يشكلون أداة مهمة للقضاء على الثورات العربية ، مقابل مبالغ بسيطة من المال، تدفعها لهم أجهزة المخابرات المختلفة ، حيث يتم استخدامهم بنفس الوتيرة ، فعندما تظهر الثورات والمظاهرات السلمية ، فإن هذا لا يروق للأنظمة الاستبدادية التي تقوم على القهر، والعنف ، والقمع ، فتلجأ المخابرات دائماً إلى الطلب من الزعران الانخراط بين الجماهير المنتفضة ، واطلاق النار على الجيش ، او عناصر الشرطة ، أو الظهور بين الثائرين وهم يحملون البلطات، والسواطير والسكاكين، أو البنادق للإيحاء بأن هذه المظاهرات ليست سلمية، وأن من حق الدولة قمعها وقتل المتظاهرين ، ومع أن العالم يدرك ذلك ، ألا أنه لا يأبه لذلك ما دام الأزعر يقتل ابن وطنه ، وأخيراً فإن الحكام في عالمنا العربي والإسلامي لا يمتلكون إلا القدرة على قتل أبناء شعوبهم فقط ، مما يجعل قسماً منهم ككبار الزعر.

الزعر لغة واصطلاحاً

قبل البدء بالحديث عن الزعر كفئة اجتماعية لا بد من تحديد لفظ الكلمة والتعرف على المعنى اللغوي ، وكذلك محاولة التوصل إلى تحديدها اصطلاحا ، فمن حيث اللفظ فقد تكتب بضم الزاي أو فتحها مع التشديد في كلتا الحالتين، أما حرف العين فقد يفتح أو يكسر ، بينما يعتمد المعنى اللغوي على القرينة، فإذا وصفت الطيور بالزَعَر فإنها تعني ذات الشعر القليل والمتفرق ، خاصة إذا ما سقط أطوله وبقي أقصره وأردؤه [1]، وإذا ما قرنت بأرض فإنها تعني القليلة النبات [2]، بينما إذا ما قرنت بالإنسان من الذكور والإناث ، بوصفه أزعَر أو من الزُعْران أو إمرأة زَعْراء أو زُعَيراء ، فإنها تحمل عددا من المعاني ، إذ قد تعني قليلي شعر الرأس والجسد [3]، أو السيء الخلق ، أو الفاسد والشرير والشرس الذي لا خير يرتجى منه [4] ، وقد تعني كذلك الشخص الذي يصعب انقياده وضبطه ، ولا يخضع للقيم والقوانين السائدة ويتمرد عليها [5] ، أو الذي يغتصب ممتلكات الآخرين بحكم القوة [6]، وإذا ما تم تصغير الكلمة بزَيْعِر فإنها تعني الرجل قليل المال [7] .

ويقابل مصطلح الزعر أو الزعار مصطلح الأحداث [8]، أو الشطار أو العيار أو الحربية [9]، والدُعَر أو الدَعِر والذي يعني لغويا ذلك العود الذي يكثر دخانه وينطفئ قبل اكتمال احتراقه [10] ، وعندما يطلق هذا المصطلح على فئة من الناس فإنه يعني إما قطاع الطرق ، حيث كان يطلق قبل الإسلام على أبناء قبيلة طيء، المستقرين بين الحجاز والعراق، لأنهم كانوا يعتدون على الناس الذين يجوزون من مناطقهم، فيسلبون أموالهم وممتلكاتهم [11]، أو الرجل الخبيث

الفاسق ، أوعلى اللصوص وشرار الناس أصحاب الأخلاق الدنيئة [12]، أوعلى الذين يتعرضون للنساء بالألفاظ غير المقبولة خاصة في الليل [13] ، أو الذين يشربون الخمر دون رادع [14] ، أويخونون أصحابهم ويعيبونهم طوال الوقت [15] ، أو ممن لا خير فيهم، فيسرقون الناس ويؤذونهم ويزنون [16] ، وكذلك تلك الفئة من الرجال الذين يقومون بتوفير الحماية للخمارات وبيوت اللهو ، التي تترافق مع البغايا والداعرات من النساء ، ويقومو بتسهيل عمليات البغاء بوسائل مختلفة ، وهم من يطلق عليهم في أيامنا بالقوادين.

قد يطلق مصطلح الزعارة على بعض العلماء ، ممن كان يزدري الناس ويستخف بهم ، ويتكبر عليهم ، مختالا بما أتقن من العلوم ، وحسن المنطق، وعظم الجاه ، والمكانة الاجتماعية المرموقة [17] ، أو لمن تصفهم المصادر بمزاج عصبي سيء ، مع سرعة الغضب وسهولة الاستفزاز ، لكن مع التأكيد في الوقت نفسه على أن ذلك لا يؤثر على مكانتهم العلمية، فمنهم من كان مُحَدّثا عَدلا وثقة ، ومنهم من برع في دراسة الفقه ، بالرغم من القول بأن في خلقهم زعارة [18] ، أما إذا نسبت الزعارة إلى رجل عسكري فإنها تعني أنه رجل قادر على تحمل المسؤولية ، ومتقن لفنون الحرب ، مثل الأمير أينال الأزعر زمن الظاهر ططر 824هـ/1421م[19]، وعندما نسبت إلى جماعة اليونسية من الصوفية فعنت أصحاب الشطح والخواثة وخفة العقل ، ممن كان منهم يدعي وضع الشعر والعبارات التي ينسبها إلى الله ، أو الادعاء بعلم الغيب والإخبار به [20]، في حين أن وصف الأويراتية في مصر- المصطلح الذي أطلق على المغول الذين أسلموا وهاجروا إلى القاهرة واستقروا بها منذ أيام الظاهر بيبرس - بالزعارة عنى الفتوة والتصرف كرجال عصابات ومجرمين [21].

يقصد بالزعر تلك العصابات الإجرامية المنظمة، التي انتشرت في حارات المدن الإسلامية وأزقتها، لتعطي صورة عن إحدى أشكال البنى الاجتماعية المختلفة ، ولتساهم في الأحداث سلبا أو ايجابا ، وإن أفضل طريقة لفهم هذه الجماعات، يكون من خلال استعراض تاريخهم في المدن المختلفة ، كدمشق والقاهرة بخاصة ، مع الإشارة إلى أن المعلومات كثيرا ما تكون مقتضبة .

الز عر والسلطة

بدأ ظهور مصطلح الزعر في مصر منذ بداية القرن الثامن ، حيث يشير المقريزي إلى انتشارهم بالقاهرة للنهب والسلب على إثر الزلزال الذي ضرب المدينة عام 702هـ / 1302م، ومع تولي الكامل شعبان للسلطة بين عامي 746-747 هـ / 1345-1347م، وسماحه للناس بممارسة جميع أنواع الملاهي ، أحدث الزعر لعبة اللبخة ، وهي عبارة عن قتال بين اثنين باستخدام عصي غليظة وكبيرة ، يتضاربون بها ، وقد تؤدي إلى مقتل أحدهم ، كما مارسوا لعبة الشلاق ، وهو قتال بين مجموعتين منهم باستخدام المعاليق والحجارة ، وقد شهد يوم واحد مقتل سبعة منهم بهذه الألعاب ، ثم تزايدت اعتداءاتهم على الناس ، عندما قام السلطان بإقطاع كبيرهم خبزا في الحلقة ، مكافأة له على براعته في لعبة اللبخة ، وازدادت خطورتهم بشكل واضح عندما تعاونوا مع العبيد، حيث انتشروا في المدينة وضواحيها للنهب والسلب بعد ذلك ، فنهبوا حوانيت ضاحية الصليبية خارج القاهرة، حتى إذا ما خرج إليهم الوالي لا يعيرونه أي اهتمام ، و

إذا ما قبض على واحد منهم سرعان ما يطلقون سراحه بالقوة ، معتمدين على دعم السلطان ، وعدم اعتراضه على أفعالهم [23] .

أصبح الزعر جزءاً من الحياة السياسية ، حيث أخذوا بالانخراط في الصراعات السياسية بين الأمراء ، وكذلك في الثورات والحروب الأهلية ، دون أن يكون لهم مبدأ سوى المصلحة الخاصة وانتهاز الفرص ، فعندما تعاون غلام الله الطشتخاناه مع الزعر لاغتيال الأميرين بركة وبرقوق عام 781هـ / 1379م، وتم احباط محاولته، أصدر الأمير بركة أمرا لوالي القاهرة بتتبعهم ، فألِقِي القبض على عدد كبير منهم ، وفي الوقت نفسه اتخذ الأمير برقوق سياسة مناقضة تجاههم ، حيث أمر بتأمينهم وطمأنتهم [24] ، مما كان له أكبر الأثر في السنة التالية 782هـ/ 1380م، بالانتصار على بركة، عندما وقف الزعر إلى جانبه وقاتلوا معه ضد بركة، الذي أعلن الثورة على برقوق ، وأخذ يدبر لاغتياله ، فقاتلوا مع برقوق مستخدمين شتى أساليب القتال الشعبية خاصة المقاليع والحجارة ، حتى عدوا أحد أهم أسباب الانتصار ، بسبب احباطهم لمحاولات الأمير بركة في السيطرة على القلعة [25] .

وبعد أن تولى السلطان برقوق السلطنة عام 784هـ/ 1382م، حافظ على بعض العلاقات الخفية مع الزعر ، فعندما توفي شريف مكة أحمد بن عجلان عام 788هـ/1386م، استولى على إمارة مكة ابنه محمد، بتدبير من والدته وعمه كبيش ، دون رضى السلطان برقوق ، وقاموا بسمل عيون عدد من الأشراف ، فأضمر السلطان العداء لهم ، وبدأ بالتفكير في كيفية التخلص منهم بالحيلة ، فأرسل إليهم الخلع والمراسيم، وأمرهم بتزيين مكة ، متظاهرا

بالرضا عنهم ، إلى أن جاء موسم الحج ، فأرسل اثنين من الزعر على هيئة الحجاج ، فلما وصل الركب إلى الزهراء بالقرب من مكة ، خرج الأمير محمد على جمل ، فتقدم الحجاج الجراكسة لتقبيل الجمل الذي كان يركبه ، كما جرت العادة عندهم في كل عام ، ولما وصل إليه هذان الاثنان ، انقضا عليه بخناجر كانا قد أخفياها تحت ملابسهم [26]، وتَذكرنا هذه الوسيلة بإحدى طرق الحشّاشين في اغتيال الخصوم .

كانت أحداث سنة 791-792هـ/ 1389-1390م، من ثورة الناصري ومنطاش ، وهرب السلطان برقوق وعودته ، مؤشرا للدور التخريبي واللاأخلاقي لفئة الزعر في القاهرة وغيرها من المناطق ، فعندما وصل الخبر إلى القاهرة بانتصار الناصري في دمشق على الجيش الذي أرسله السلطان للقضاء عليه ، أخذوا بالتأهب لانتهاز الفرصة، لا لمساعدة الناس والسلطان ، بل لتقدير الموقف، ومراقبة تطور الأحداث ، والقيام بأعمال النهب والسلب التي اعتادوا عليها في تلك الأوضاع ، وازدادت رغبتهم عندما قام السلطان بالإشارة إلى الناس بضرورة تدريب - بناء الحواجز والجدران لتضييق الطرق ووضع الحماية عليها والحراس – حاراتهم وأحيائهم ، وإسقاط بعض المكوس تحببا للناس ، مما جعلهم على يقين أن السلطة قد خسرت هيبتها ومكانتها ، وأن انعدام الأمن والفوضى هي الظاهرة التي ستكون عنوانا للفترة القادمة ، والتي تشكل الأرضية الخصبة للنهب والسلب والاعتداء على الناس ، بالرغم من المعاناة الشديدة للناس بسبب كثرة الموتى بالطاعون ، وانشغالهم بدفن موتاهم [27] .

وبعد أن قتل الناصري عددا كبيرا من أمراء برقوق الذين سقطوا بيده في أحداث دمشق ، تعاون زعر أهل دمشق مع الأتراك والتركمان ، وأخذوا بالطواف على البيوت والخانات التي نزلها الجيش المصري ، كما نهبوا أعيان دمشق من الأجناد وغيرهم ، والحوانيت واستمر النهب لعدة أيام قدرت بين 7-14 يوما [28] ، ولما أخذ الناصري بالتوجه نحو القاهرة حاول برقوق التقرب إلى الزعر واستقطابهم للقتال إلى جانبه ، فأرسل الأمير آقبغا الماردينى لهم وأعطاه مبلغا كبيرا ، لتفرقته في زعر أولاد الحسينية وغيرها ، مما شجعهم وغيرهم من زعر الحارات الأخرى ، كزعر باب الفتوح ، وزعر باب النصر ، وزعر باب البرقية ، على التكتل مع بعضهم وتكوين عدد من العصابات ، وتعيين كبير على رأس كل عصابة منهم ، والخروج خارج باب البرقية، وباب الجديد وباب المحروق، والتضارب والشلاق بعضهم على البعض ، والتقاتل بالحديد والمقاليع ، واختطاف كل من وجدوه منفردا من الناس ، وأخذ ملابسه ، بالإضافة إلى السلب والنهب مهما أمكن [29] ، كما أمر برقوق بالإفراج عن المحبوسين إلا الشياطين والدعار (الزعر) ، فلما علموا باختفاء الوالي كسر الزعر باب سجن الخزانة وباب سجن خزانة شمائل واقتحموا سجن الرحبة، وسجن حارة الديلم لإخراج من بها منهم ، وانتشروا مع أهل الفساد في القاهرة ، فانضم المحابيس الذين أطلق سراحهم إلى الزعر ومارسوا أعمالهم نفسها[30].

ومع وصول يلبغا إلى بلبيس ثم إلى بركة الحجاج ، اندفع الزعر إليه لتقديم المساعدة له واكتساب ولائه ، بعد أن تأكدوا من ضعف السلطان برقوق، عندما بدأ بعض الأمراء بالتسلل نحو يلبغا والميل إليه ، فالتقوا بالناصري ،

ونقلوا إليه جميع أخبار القاهرة ، وحالة الظاهر من الخوف والجبن والعجز عن ملاقاته ، وحثوه على سرعة التحرك وانتهاز الفرصة ، وأخبروه بما فعله من تحصين القلعة ، وحفر الخنادق ، وتدريب الحارات ، وسد الأبواب والأزقة المؤدية للقلعة ، كما ذكروا له جميع حواصل الأمراء وحواصل السلطان ، وأين أخفوا أموالهم ، وأبدوا استعدادهم للقتال إلى جانبه عند الهجوم على المدينة ، وما أن وصل إلى الحسينية ومسجد التبن حتى هبوا لنصرة الناصري ، فصاروا يرمون جنود الظاهر بالحجارة ، ويحثون العامة على مساعدتهم ، وشن حملات كر وفر ضد أتباع الظاهر باستخدام صوارخ النفط [31] ، ولكنهم في الوقت نفسه قد استغلوا الأحداث الهجوم على الناس ونهب الحوانيت والحواصل ، حتى قيل إن ما نهب من القاهرة أكثر مما نهب من مصر (الفسطاط) [32] .

لم يكن انتصار يلبغا على برقوق يعني نهاية الأحداث بالنسبة للزعر ، فقد رفض قسم منهم أن يسلم السلطان نفسه ليلبغا ، وتعهدوا بالاستمرار في القتال إلى جانبه ، إلا أن برقوق لم يكن يثق بهم ، فشكرهم على موقفهم واختفى بعد ذلك[33] ، في حين أن القسم الأعظم منهم وجد بهذه الأحداث الفرصة الأنسب للنهب والسلب ، فانتشر المشالقون منهم بين القصرين وفي جميع الطرقات والشوارع ، وتحت القلعة والرميلة ورأس الصليبة ، وفي داخل القاهرة وخارجها ، وصاروا يمسكون من مر بهم من الجند ويجردونه مما عليه من سلاح وقماش وخيل ، وإذا ما قاومهم قتلوه[34]، كما بدأوا بنصب الكمائن للناس العاديين في المناطق المهجورة ، لخطف عمائمهم وتجريدهم من ملابسهم ، ومن حاول مقاومتهم فإما قتلوه أو جرحوه[35] .

ومع تمكن يلبغا من دخول القلعة ، اتحدت زعر الصليبة والقاهرة والحسينية والحارات الأخرى مع أوباش العامة وأهل الفساد والترك والتركمان ، الذين قدموا مع الأمير يلبغا ، ومن ضمنهم الأمير منطاش ، وقسموا أنفسهم إلى عدد من الفرق ، لمهاجمة بيوت الأمراء والمماليك السلطانية ، والهجوم على حواصلهم واصطبلاتهم ، والانتشار في حارات القاهرة لنهب بيوتها وحوانيتها ، حتى إذا لم يجدوا شيئا بداخلها قلعوا الأبواب والطاقات (الشبابيك) والسقوف والأخشاب(36) ، حتى لم يعد بإمكان أحد ايقافهم عن ذلك ، لأن الناس قد انشغلوا بحماية أنفسهم وأرواحهم لشدة خطرهم(37) ، كما رافق الزعر التركمان من الذين قدموا مع يلبغا ، وأخذوا بإرشادهم إلى بيوت الأمراء واصطبلات المماليك الشراكسة وفتحها ، وأخذ ما فيها من خيل وقماش وكل ما وقعت عليه أيديهم(38) .

اتجه الزعر منذ اللحظة الاولى إلى نهب حواصل السلطان برقوق واصطبلاته ، فنهبوا كل ما وصلت إليه أيديهم من الفلوس العتق والجدد والغلال والحيوانات ، قيل أنها بلغت 200 ألف درهم ، ومن الشعير 200 إردب (13.940كغم) ، ومن الخراف والضأن بين 700-2000 رأس ، بالإضافة إلى عدد من الخيول(39) ، كما نهبوا كذلك اصطبل الأمير قجماس ابن عم السلطان(40)، وكذلك قاموا بنهب حواصل محمود الإستادار وبيوته، وحواصل عدد من الأمراء الآخرين (41) .

لم تكن الفئات المختلفة من السكان والأماكن والحارات والأزقة بمعزل عن عمليات النهب والسلب واعتداءات الزعر، فقد حاصروا الدور والحارات

والأزقة من أجل نهبها، ونهبوا الكثير من أموال التجار وحوانيتهم، وفندق الرف الذي كان عند الجملون، وهدموا بيت القردمية ، وأخذوا بابه وما به من رخام وأخشاب ، واعتدوا على مجموعة من البيوت التي تقع على الخط الواصل إليه ، كما لم يسلم الناس من هجماتهم، فنهبوا الكثير من أموال ضواحي القاهرة وممتلكاتها، كالحسينية والصليبة وجامع أحمد بن طولون والجامع الأزهر[42] . وهاجموا حوانيت التجار اليهود في منطقة الجملون ، إلا أنهم قاوموهم ، وقتلوا أربعة من العامة المشاركين معهم ، فتجمع العامة لشن هجوم على الجماعات اليهودية في المنطقة ، إلا أن والي القاهرة قد تدخل ومنعهم من ذلك[43] ، ثم سرعان ما هاجموا السجون، وأطلقوا من كان بها من الحرامية والمقيدين والفلاحين حتى لم يتبق واحد منهم فيها[44] .

حتمّت هذه الحالة من الفوضى ضرورة إسراع الناس باتخاذ مجموعة من الإجراءات ، كان أولها تدريب الحارات ، ووضع الحراسات عليها في النهار والليل ، والدفاع عن البيوت والحيلولة دون قيام الزعر بنهبها ، مستخدمين شتى الوسائل الممكنة ، فعندما حاولوا نهب بيت حسين الكوراني ، وبيت القاضي جمال الدين محمود العجمي ناظر الجيوش ، وبيت علاء الدين الطشلاقي العينتابي متولي قطية ، منعتهم الناس ودافعوا عنهم بكل ما أوتوا من قوة[45] ، ودخل أهل الحارات معهم في حروب مفتوحة من أول النهار إلى آخره في بعض الأيام[46] ، ثم لجأ الناس إلى إرسال وفود للسلطة لمطالبتها بتحقيق الأمن في المدينة ، فذهب عدد من التجار والأعيان والناس إلى تحت القلعة ، واستغاثوا بالأمير يلبغا ومن معه من الأمراء ، وأخبروهم بمدى ما يعانيه الناس من الزعر والأتراك النهابة ، فأمر يلبغا مجموعة من الأمراء بحراسة أبواب

القاهرة ، لمنع جماعات النهابة من الدخول إليها ، واستدعى ناصر الدين بن حسام ، وعينه واليا على المدينة ، وأعلن أن كل من يقوم بالنهب والسلب يتم قتله أو ضربه بالمقارع أو قطع يده ، وقد أرفق ذلك ببعض الخطوات العملية ، بتوسيط عدد منهم وسجن البعض ، ودعوة الناس إلى الاطمئنان وفتح الحوانيت [47] ، وقد استمرت حالة الفوضى هذه مدة ثلاثة أيام ، خسرت فيها القاهرة الكثير من الأموال ، وأصابتها حالة من الدمار، يمكن ان نقول من الأوصاف الواردة وكأن زلزالا قد ضرب المدينة وضواحيها .

يبدو أن الاستقرار والأمن لم يكن لهما أي مجال في القاهرة عام 791هـ /1389م ، إذ سرعان ما دب الخلاف بين الأتابك يلبغا والأمير منطاش ، شريكه الرئيس في الإطاحة بالسلطان برقوق ، فبعد شهرين ونصف تقريبا وذلك بين 16-19 شعبان ، عادت القاهرة لتشهد موجة جديدة من العنف والصراعات ، ولتفسح المجال للزعر للعودة إلى لعب دور أحد القوى المؤثرة والفاعلة في الأحداث ، خاصة أن منطاش كان قد أدرك أهميتهم في ثورة يلبغا ، وساهم معهم في أعمال النهب والسلب ، فرأى ضرورة العمل على تقريبهم واستقطابهم ، إذا ما أراد النجاح ، فاستدعاهم ووعدهم بالتخلص من يلبغا بسبب كرههم لأعماله اتجاههم ، فكتب أسماءهم وفقا للحارات التي ينتمو إليها، ثم عَرَفَ عليهم عددا من العرفاء، وأنفق فيهم ما قيمته 60,000 درهم لكسب ولائهم[48]، وصار يخاطبهم " أنا واحد منكم ، وغريب عنكم، ويسألهم المساعدة " فأعلنوا انضمامهم وولاءهم له ، واستعدادهم لدعمه بكل ما اوتوا من قوة[49] ، وقد أشعرهم هذا الأسلوب في التعامل بأهميتهم ، فبدأوا بالاعتداء على الناس ،

وصاروا يمشون في الحارات والأماكن المهجورة شاهرين سيوفهم ونمجهم وسكاكينهم[50] .

وبما أنهم لم يكونوا مُوَحدين على رأي واحد ، فقد انضم قسم منهم للناصري (يلبغا)، والقسم الآخر لمنطاش، وصارت كل فرقة منهم تشالق وتضارب الأخرى، ويرمون بعضهم بالحجارة، ثم وقفوا إلى جانب مدرسة السلطان حسن ، وكلما نزلت جماعة من جماعة الناصري خرجت جماعة من الطرف الآخر لقتالهم[51]، وتفانى الزعر في إظهار ولائهم لمنطاش واستعدادهم للتضحية من أجله ، فصاروا يأخذو السهام التي يرميها جماعة الناصري ، ويلتقطو الحجارة ويأتو بها إلى منطاش[52] ، وصعدوا إلى مئذنة مدرسة السلطان حسن ، حتى يرموا على من يمر بالرميلة[53] ، وصاروا يقذفون الأمراء بحجارة المقاليع ، حتى كسروهم أكثر من مرة[54] .

وحتى يتم تحفيزهم على القتال أكثر فأكثر، لجأ منطاش إلى أسلوب الإغراءات للزعر، حيث طلب من الوالي بالنداء بأنه قد أعطاهم الإذن بنهب كل من يجدونه من مماليك وأتباع يلبغا[55] ، فصاروا يقفون بين القصرين والطرقات ، وكلما مر عليهم جندي سلبوه ما عليه من سلاح وثياب بعد أخذ فرسه[56] ، ويسألون الجندي أنت منطاشي أم ناصري ، فإن قال ناصري سلبوه كل ما عليه وسجنوه [57] ، وإن قال منطاشي قبضوا عليه وأرسلوه إلى منطاش [58] .

اتجه الزعر في الوقت نفسه إلى نهب بيوت أعوان الناصري ، فقاموا بالهجوم على بيت الأمير آقبغا الجوهر وإصطبله ، ونهبوا كل ما فيه من خيل وقماش ومحتويات [59] ، وتوجه جماعة منهم إلى منزل القاضي فخر الدين بن مكانس ناظر الدولة ، وعندما عجزوا عن نهبه بسبب شدة تحصينه وتحصين أملاكه ، حاولوا إحراق باب الدرب الساكن به ، فأحضروا النيران إلا أنهم قد فشلوا في ذلك ، لأن جماعة من غلمان القاضي وعبيده ، ومن انضم إليهم من أولاد الخط ، رجموهم بالحجارة ومنعوهم من الوصول إلى منزله ، في حين اتجهت جماعة أخرى إلى بيت موقع الناصري وبيوت أعوانه وحاشيته[60]، كما اتجهت جماعة أخرى إلى بيت الصاحب كريم الدين بن مكانس ، فوجدوا باب الدرب مقفلا فلم يستطيعوا فتحه وخلعه ، فأحضروا النيران وأحرقوه ، ولكنهم فشلوا في الوصول إلى هدفهم ، بسبب عبيده وغلمانه وحاشيته وحفدته ، الذين رموهم بالنشاب والحجارة وقاتلوهم بالسيوف[61] ، ولما هرب الناصري اتجهوا إلى الإصطبل السلطاني ، فنهبوا كل ما به من قماش وخيل ومال ، وتوزعوا في جميع أنحاء القاهرة لمهاجمة دور المنهزمين ، فأخذوا ما قدروا عليه ، بالرغم من محاولة الناس منعهم من ذلك[62] .

إن الحقيقة الثابته لدى السلطة والناس أن الزعر ليسوا أكثر من قطاع طرق في المدن ، ومجرمين ، ونهّابين ، وانتهازيين ومرتزقة ، وأن سياسة التقرب منهم أخطر من قمعهم ومعاقبتهم ، فبعد شهرين من انتصار منطاش ، وذلك في شهر رمضان 791هـ/1389م وقف جميع الناس من الخاصة والعامة لمنطاش تحت القلعة وباب السلسلة ، وطالبوه بإعادة حسين الكوراني لولاية القاهرة، بعد الهجوم الذي شنه الزعر على الناس في صلاة الجمعة ، وهجومهم

على جامع آقسنقر، وعلى التبانة ، ونزع وسرقة عمائم الناس من على رؤوسهم ، بالإضافة إلى مهاجمتهم للسوة تحت القلعة ، ومدرسة الملك الأشرف ، والصليبة ، وجامع ابن طولون[63] .

وبالفعل ولى منطاش الكوراني ولاية القاهرة، وأعطاه قائمة بأسماء الزعر، ومنحه السلطة الكاملة ، بأن كل من يقع في يده من الزعر فليوسطه دون محاكمة ، وأشهر النداء في القاهرة أنّ من حمل من الزعر سيفا أو نمجاة أو سكينا أو شالق بحجر سيتم توسيطه ، ومن نهب شيئا ولم يعده سيعاقب، وبالفعل بدأ الكوراني ونائبه حملة لتطهير المدينة من هذه الجماعة ، فقبض على ثمانية من زعر الحسينية ، وعلى ستة من زعر الصليبة ، فقطع أيديهم وأرجلهم ، وطاف بهم في القاهرة وضواحيها ، كما وسط ستة آخرين ، وطالب خفراء الحارات، وأخبرهم أن من مهامهم الجديدة إلقاء القبض على الزعر وتتبعهم ، فقبض على عدد كبير منهم واودعوا في خزانة شمائل – سجن المجرمين – [64] ، وبذلك فإن الكوراني قد قتل خلائق لا تدخل تحت حصر منهم، وأبادهم مما يفسر استبشارهم بموته [65] .

وفي ظل هذه الاضطرابات والفوضى وانعدام الأمن ، ووصول الأخبار إلى برقوق في منفاه بالكرك ، وجد أن الفرصة مناسبة لاستعادة ملكه بثورة مضادة ، فتحرك في البداية واتجه نحو السيطرة على مدينة دمشق ، فتخوف أهل دمشق من الزعر، خاصة أن قسما من زعر مصر قد قدموا إلى دمشق لتحريض برقوق[66]، وما أن حاصر برقوق دمشق حتى قدم إليه جماعة من زعر دمشق ، وأخبروه أن نجاحه يتوقف على دخول المدينة في يوم محدد ،

وأنه إذا ما تأخر فإنه سوف يفشل ، فسمع مقالتهم ودخل المدينة وفقا لمشورتهم[67] ، ثم رحل إلى القاهرة في شهر محرم 792هـ/1390م وسيطر عليها ، وبالرغم من انعدام السلطة ، إلا أن القاهرة بقيت في أمان واستقرار، ولم يتمكن الزعر من نهب أحد في البداية[68].

ولكن هذه الأحداث لم تمر بسلام تام ، فسرعان ما أخذ الزعر في مهاجمة بيوت الناس ، بحجة الناصرية أو المنطاشية ، فهاجموا بيت كريم الدين عبدالكريم بن مكانس ، ونهبوا بيت دويداره صواب وغيره من أهل الدرب المقيم فيه في زريبة قوصون ، وأخذوا فرسا له ، ولكنهم لم يتمكنوا من الوصول إلى بيته ، بسبب اجتماع أهل الزريبة وأهل الدرب ومحاربتهم بالنشاب والحجارة برا وبحرا (جهة نهر النيل) [69] .

شعر الزعر بعد عودة برقوق ودورهم في مناصرته بالقوة ، وأن بإمكانهم فعل الكثير، والاستفادة من ذلك ، فقاموا بقتل عدد من الناس ، وجرح الكثيرين أثناء الاحتفالات وتزيين القاهرة ، حيث عملوا ما يقرب من عشرين قلعة في حارات القاهرة ، وجعلوا لكل قلعة صفة نائب سلطان ، وأخذوا بمراسلة بعضهم كما يفعل البريدية ، وبدأوا بجباية الحارات ، وأوكلوا ذلك إلى أفراد على هيئة المباشرين، وصاروا يركبو بأبهة الملك ، وحولهم الطبردارية بالسيوف المسلولة ، وركبوا الخيول بسروج وكنابيش الذهب ، وصارت الجنائب تجري وراءهم ، ويخرجون للصيد ، وعملوا في القرينة تمثالا مسمرا على هيئة منطاش، حتى كادت الحرب تقع فيما بينهم[70] ، مما دعا برقوق إلى إصدار أمر بإيقاف ذلك بعد خمسة أشهر من عودته ، ولم يتوانَ بعد ذلك عن

قمع الزعر ، حتى قيل إنه عند سفره إلى الشام بعد عام من عودته وذلك في سنة 793هـ/1391م لم يجرؤ اللصوص أو الزعر على ايذاء الناس بعد أن أدركوا أن التوسيط سيكون عقابهم الرئيس[71] .

يظهر مدى أذى الزعر في القرن التاسع بين فينة وأخرى، مما يعكس لنا أن هذه الفئة قد كان لها دورها التخريبي والإجرامي، فعندما مرض السلطان برقوق مرض الموت، أغلقت القاهرة أبوابها وحوانيتها بسبب توقع حدوث النزاعات والصراعات على السلطة ، كعادة المماليك بأن السلطة لمن غلب ، ولذلك سرعان ما بدأ الزعر بممارساتهم الإجرامية ، من نهب بعض المناطق الواقعة على أطراف المدينة ، والاستعداد والتجهز للنهب والسلب ، لولا أن الوالي أمسك جماعة منهم وضربهم بالمقارع[72] .

وبعد وفاة السلطان برقوق ثار الأمير أيتمش وعدد من الأمراء ضد ابنه السلطان فرج في سنة 802هـ/1399م، فوقف الزعر إلى جانب المماليك السلطانية وساعدوهم ، ولكن ما أن انهزم ايتمش ومن معه من الأمراء وهربوا ، حتى عَمّت القاهرة حالة من الفوضى ، وانتشر الزعر في جميع أنحاء المدينة لنهب بيوت الناس بحجة انهم من مناصري أيتمش ، واخذوا بمهاجمة المؤسسات المختلفة ، كمدرسة الأمير أيتمش ، حيث نهبوا جميع محتوياتها ، وأحرقوا الربع المجاور لها ، كما فعلوا ذلك بمدرسة السلطان حسن ، وهاجموا الوكالة ، وجامع آقسنقر فكسروا قناديله وأهانوا مصاحفه ، وبيوت الأمراء المنهزمين ، حتى قدّر ما سرقوه من بيت والد ابن تغري بردي المؤرخ ما يقرب من 20,000 درهم، من مال وخيل وقماش وسلاح ، وقس على ذلك بقية

الأمراء ، وهاجموا كذلك زرائب الفلاحين ، واستولوا على جمال الناس ، وكما هي العادة هاجموا السجون ، فاقتحموا سجن الرحبة وسجن الديلم وسجن القضاة ، وأطلقوا من كان فيهم من أصحاب الجرائم ، الذين على ما يبدو أنهم من جماعتهم ، ولم تهدأ تحركاتهم إلا بعد إعلان الوالي أن كل من ينهب شيئا سوف تقطع يده ، ثم قيامه بإخراج عدد من المساجين وقطعهم، وضربهم وإشهارهم في المدينة[73] .

استمر دور الزعر في الحياة السياسية في القرن التاسع فعندما تعرض الإستادار سعد بن غراب عام 803هـ/1400م إلى محنة ، نتيجة مطالبة المماليك له بالأموال وعدم قدرته على تلبية طلباتهم ، هرب نحو الإسكندرية وتوجه إلى منطقة تروجه ، واتصل بزعر الإسكندرية ، فقدموا عليه تحت قيادة إحدى الشخصيات البارزة بينهم وهو غلام الخدام ، فاتفق معهم على قتل نائب الإسكندرية ، ودفع لكل واحد منهم 500 درهم ، ولكن أهل تروجة كاتبوا السلطان بذلك ، فأعلموهم أن الكتاب الذي معه لجمع الضرائب مزور ، وأمرهم أن يمسكوا به ، ولما علم بذلك نائب الإسكندرية ، تحرك وضرب الزعر، وألقى القبض على غلام الخدام وسجنه، وقبض على جماعة ممن كان معه وقتلهم ، وقطع أيدي جماعة ، وسجن آخرين بعد ضربهم بالمقارع[74] .

وعندما ثار الأميَرين نوروز وشيخ على السلطان فرج بن برقوق في عام 813هـ/1410م ، قدِم عدد من زعر دمشق معهم للقاهرة واشتركوا في الثورة ، ولكن بعد مقتل السلطان أصبح الزعر عبئا على أهل القاهرة ، فقام الوالي بكتمر جلق بتتبع الزعر من الشاميين وغيرهم من أهل القاهرة، الذين

ساهموا في الثورة، فأبادهم وقطع أيديهم وضرب جماعة بالمقارع[75]، وفي عام 828هـ/1425م اشترك الزعر في الغزوة الثانية على قبرص[76]، ثم في عام 832هـ/1429م أخذ الزعر استعداداتهم لنهب القاهرة، عند بدء الخلاف بين الأمير جارقطلو والسلطان برسباي[76] .

وفي ثورة قرقماس والأمراء على السلطان جقمق عام 842هـ/1438م، الذين طالبوا بزيادة مرتباتهم ومخصصاتهم ، أخذ كل من الطرفين بمحاولة اكتساب الزعر إلى جانبه ، فنادى قرقماس أن كل من يناصره من الزعر فله عشرون دينارا ، ورد جقمق على ذلك بان نثر عليهم الدنانير، فمالوا إليه وكأن لسان حالهم يقول " درة معجلة خير من درة مؤجلة " ، ولما هزمت القرقماسية وهربوا، أخذوا بنهبهم فتوجهوا إلى دار قرقماس وأخذوا جميع ما فيها[77].

وفي ثورة الأمير الكبير إينال على عثمان بن السلطان جقمق عام857هـ / 1453 م ، ساهم الزعر في القتال إلى جانب الطرفين حيث قتل منهم ومن العامة أكثر مما قتل من الجند[78]، وقد حاول السلطان عثمان أن يشجعهم بالقبض على الأمير يلبغا، بسبب ما أظهر من الشجاعة في القتال إلى جانب إينال، بأن وعد أن أياً من يقبض عليه فله 500 دينار، وقيل 1000 دينار ، فتشجع الزعر للمخاطرة بخطفه من أجل هذا المبلغ الكبير ، إلا أنهم فشلوا بذلك[79] ، ومن الملاحظ في هذه الثورة أن مدينة القاهرة لم تتعرض للنهب كما جرت العادة في مثل هذه الأوضاع .

ساهم الزعر كذلك في الثورة عام 865هـ/1461م ضد المؤيد أحمد بن إينال ، الذي تسلطن بعد والده ، فوقف الزعر في البداية إلى جانب السلطان ، وأظهروا مقدرة عسكرية فائقة ، بحيث قاموا بشل حركة الأمراء الثائرين ، حتى لم يتمكنوا من التقدم لخطوة واحدة ، لأن الزعر أخذوا بمحاربتهم في الرميلة بالحجارة والعصي، حتى أبادوا الكثير من جندهم ، وسيطروا على الأسواق المتصلة بالقلعة ، ومنعوا الأجناد من التقدم نحو القلعة ، بعد أن دفع لهم المؤيد المبالغ الطائلة ، ولذلك لم يستطع الأمراء التقدم إلا بعد دخول الليل وانسحاب الزعر(80)، كما اشترك الزعر في الثورة ضد السلطان يلباي ، عندما ثار الخشقدمية ضده في عام 872هـ/1467م (81) .

وفي عهد السلطان قايتباي 872-901هـ/1467-1495م فإن المعلومات تؤكد على أن الدولة قد أصبحت عاجزة عن السيطرة عليهم بشكل تام ، إذ أصبح القتال فيما بينهم مشهدا مألوفا ، حيث اعتادوا على قتل وجرح وعطب بعضهم لبعض(82) ، كما أكثروا من قتل الناس ، فقد وُجد أحد البياطرة في الجزيرة الوسطى مقتولاً على أيديهم ، وقتلوا أحد المماليك الإينالية في منزله ، ولم يُعلم من قتله ، ولكن على الأغلب إما الزعر أو الحرامية(83) .

استغل الزعر تحركات الجلبان والعبيد، فاتحدوا معهم في أعمال الشغب والاعتداء على الناس في وضح النهار(84) ، فعندما ثار الجلبان عام 891هـ/ 1486م على السلطان ، قدم الزعر أفواجا أفواجا إلى القاهرة من أجل النهب(85)، ومن الملاحظ أن السلطان حاول الاستفادة والتخلص منهم في الوقت نفسه ، بمحاولة إرسالهم في التجريدة لقتال التركمان في شمال سوريا ، وأراد

أن يعطي كل واحد منهم 30 دينارا مقابل ذلك[86]، إلا أنه تراجع عن ذلك ، إما بسبب إلغاء التجريدة، أو حتى لا يطمعهم به ، إلا أن الشيء المؤكد أنه لم يستطع السيطرة الفعلية عليهم، فصاروا "يفعلون ما يريدون وكيفما شاءوا [87] .

ومع اضطراب الأوضاع وثورة الأمير الدوادار آقبردي 902-903هـ/ 1496-1497م ضد السلطان قانصوة بن الأشرف قايتباي، انتهز الجلبان والعبيد والزعر الفتنة للقيام بعمليات النهب والقتل ، فدمروا قبة مدرسة السلطان حسن ، ونهبوا كل ما فيها من شبابيك وأبواب ورخام حتى قيل أنها بقيت على تلك الحالة لأكثر من عشرين عاما ، كما قتلوا كل من ظفروا به من رجال الأمير آقبردي وأتباعه ، بطرق تتسم بالوحشية المطلقة ، واستمروا في نهب القاهرة ما يقرب من ثلاثة أيام[88] ، وتكرر الحال في عام 907هـ/1501م عندما اضطربت أحوال القاهرة على إثر فرض السلطان طومان باي ضريبة نفقة البيعة للمماليك ، فانتهز العبيد والزعر ذلك بنهب الدكاكين من البسطيين حتى باب زويلة لمدة يوم كامل ، فنهبوا البضائع والسكر والشمع والفواكه ، حتى قدر ما أخذوه من أحد باعة الحرير ب 500 دينار نقدا ، ولم يتوقفوا إلا بعد تحرك الوالي وإلقاء القبض على أربعة عشر نفرا منهم، وتوسيطهم بعد أن كادوا يدمرو القاهرة[89] ، بينما في سنة 912هـ/1506م، وقعت فتنة كبيرة بينهم تحت القلعة ، مما اضطر الوالي إلى مهاجمتهم وقتالهم ، وقتل سبعة منهم وهزيمة الباقين[90] .

برز الزعر في الحياة العامة *بمدينة دمشق* بشكل ملفت للنظر ، وظهر دورهم وطبيعتهم وسلوكياتهم وفقا لتطور الأحداث في المراحل التاريخية

المختلفة ، وقد تكونت هذه الجماعة من فئات اجتماعية مختلفة ، فمنهم من كان من الأحرار [91] ، ومنهم من كان العبيد [92] ، الآبقين (الهاربين) من أسيادهم ، والذين على ما يبدو قد وجدوا ملاذا لهم في هذه الجماعات ، كوسيلة للتعبير عن سخطهم الاجتماعي ، وتوفير الحماية لهم من أسيادهم ، ومنهم من كان من الجماعات التي هاجرت من القرى أو المدن الأخرى ، فمنهم من انحدر من حلب[93]، أو حماة[94]، أو عربيل[95]، أو نابلس[96]، أو النيبطون[97] ، ومنهم من يعود في نسبه إلى الأشراف أو المغول[98] ، أو من أبناء القبائل العربية والعائلات المعروفة ، كآل عطا من الصالحية[99] ، وآل الذهبي من أذرعات[100] ، الذين أصبحوا رمزا للزعارة في بعض الحارات .

وضع الزعر عليهم رؤساء ، أطلق على الواحد منهم لقب كبير ، مع إضافة اسم الحارة للقبه ، ككبير زعر باب المصلى ، وكبير زعر السويقة المحروقة ، وكبير زعر الشاغور ، وكبير زعر الشويكة ، وكبير زعر الصالحية ، وكبير زعر حارة القبيبات ، وكبير زعر حارة ميدان الحصى ، وكبير زعر المزة ، وكبير زعر باب الجابية[101] ، وقد أصبح بمقدور أبناء المجتمع تمييزهم إما بملابسهم الواسعة ، التي كانوا يقلبونها على أكتافهم ، كما كانوا يلفون على رؤوسهم قرعانيا[102] ، مع حمل الأسلحة بأنواعها المختلفة من السكاكين والخناجر الضخمة، والسيوف والمعاليق والحجارة الكفيات ، والنمجاوات والسهام[103] .

اشتهر الزعر بألقابهم لا بأسمائهم الحقيقية ، فمنهم من نسب نفسه إلى حيوان معين كالجاموس[104] ، رمز القوة ، وابن الجرو[105] ، أو لصفة معينة

كابن النيات[106] ، وإبن الفكيك[107] ، وابن الطيبي[108] والمهتدي[109] ، وإبن الطيب[110] ، أو لمهنة معينة كالأقتابي[111] ، وإبن الطيان وإبن كسار[112] ، وإبن الطباخ[113] ، والسمكري[114] وإبن الشدودي[115] والقباني[116] ، وابن الأستاذ[117] ، كما أن قسما منهم قد حمل إسما غير إسمه الفعلي كشومان[118] ، وابن سويدان[119]، وبركات[120] ، والمعبيوي[121] ، وعريش[122] وأبو رميثة[123] ومنهم من لقب أبو طاقية[124] ، أو الشمعة أو العجمي[125] ، وابن حشيش[126] أو لاتجاه معين كابن الصوفي[127] ، أو نسبة للفظ شعبي مثل قصَرمَل[128]، وقزَيَة[129] ،وابن الشلاح[130] ، وأخيرا من سمّى نفسه نسبة للمنطقة التي ولد ونشأ بها، كالمزاوي نسبة للمزة إحدى قرى دمشق [131] .

أدرك الزعر منذ البداية إمكانية إيجاد علاقة متبادلة بينهم وبين أصحاب الجاه والنفوذ والقوة داخل المجتمع الدمشقي، أساسها المصالح المشتركة، وعلى رأسهم طبقة المماليك، التي كان يمثلها نائب دمشق وأعوانه، وكذلك أصحاب النفوذ الديني أو الاقتصادي، ولذلك فإن السؤال الذي يطرح نفسه في البداية ما هي طبيعة العلاقة مع طبقة المماليك؟ وكيف تم التعاون بين الطرفين؟ وما هي أسس هذه العلاقة؟ .

من الواضح أن الزعر قد أدركوا منذ اللحظة الأولى أن طبقة المماليك الحاكمة في دمشق ، من النواب وكبار الأمراء وأعوانهم، لا تزيد عن كونها مجموعة من الحكام المستبدين الفاسدين ، والمنعزلين عن المجتمع الدمشقي ، وأن طبقة المماليك لا تنظر لهذا المجتمع بأنه يستحق أكثر من الاستيلاء عليه، والازدراء له ، وأنهم كمجتمع ليسوا أكثر من قطيع، يمكن استغلاله لتكوين

الثروات الضحمة أثناء ولايتهم له، وبالتالي فإن من مصلحتهم كزعر إيجاد علاقة وثيقة مع هؤلاء النواب والولاة ، تقوم على أساس استعدادهم لأن يكونوا في خدمة هذه الطبقة ، مقابل توفير الحماية لهم ، والتغطية على أعمالهم الإجرامية واللاأخلاقية.

لذلك لجأ هؤلاء الزعر إلى العديد من الوسائل لإظهار ولائهم للنواب والأمراء، فعند قدوم أحد هؤلاء النواب أو الأفراد لاستلام وظائفهم ، نراهم سرعان ما يبادرو إلى استقبالهم، بهدف إظهار قوتهم وبراعتهم القتالية، وللفت نظر هؤلاء الحكام إليهم ، وضرورة أن يعملوا على اكتسابهم بدلاً من معاداتهم ، فعندما دخل الدوادار إلى مدينة دمشق في عام 900هـ/1495م حاملاً خلعة السلطان ، سارع الزعر إلى استقباله نكاية بالحواط ، نائب المدينة ، وللتأكيد على أنه يمكنه الاعتماد عليهم في تعزيز مكانته ، خاصة أن الحواط كان يعاني من تراجع مكانته وهيبته لديهم ، ولدى المجتمع الدمشقي[132] ، وبعد ثلاث سنوات دعوا النائب الحواط إلى حضور استعراض عسكري لهم في ميدان الحصى ، لإظهار قوتهم وقدرتهم على كبح جماح الدوادار إذا ما اعتمد عليهم ، وأتوا إليه معلنين ولاءهم وطاعتهم واستعدادهم لخدمته ، مما جعله يتقرب إليهم بمنحهم عدداً من الخلع[133]، وفي سنة 905هـ/1499م، طلب زعر الشاغور من النائب أن يمر بموكبه من حارتهم ، كوسيلة لإظهار العلاقة الوثيقة بينه وبينهم أمام الناس[134] ، كما توجّه زعر دمشق في عام 906هـ/1500م ، إلى النائب من أجل عرض خدماتهم عليه ، إلا أنه رفض استقبالهم[135]، وكذلك خرج زعر الصالحية في عام 907هـ/1501م، تحت قيادة كبيرهم المعروف بالجاموس، لاستقبال النائب الجديد قانصوه ومشوا حوله في موكبه بكامل عدتهم إلا أنه

وكما يبدو قد أدرك خطورة التقارب معهم علناً ، فقام باعتقال كبيرهم وأمر بتوسيطه، ومصادرة أمواله ونهب منزله ، وكذلك مصادرة جميع ما لديهم من الأسلحة ، خاصة أن المعلومات لديه بأنهم قد أخذوا بالاستهانة بالحاكم والولاة منذ فترة طويلة[136].

وفي المقابل فإن رؤية أصحاب الجاه والنفوذ والنواب في التعامل معهم تقوم على عدد من الأسس كجعلهم جزءاً من قواتهم العسكرية لتنفيذ أعمالهم غير المقبولة ومخططاتهم القذرة ، والاستعانة بهم عند الضرورة ، مع إيقاع العقوبات عليهم عند ما تدعو الحاجة إلى ذلك، مما دفعهم إلى استخدامهم كجزء من قوات المشاة التابعة لهم إما علناً أوسراً[137] ، فكان الشمعه وزعرانه جزءاً من مشاة أحد الأمراء[138] ، وزاد الأمراء من استخدامهم عند ضعف السلطة وتراجع قوتها في دمشق بعد وفاة السلطان قايتاي عام901هـ/1495م [139] وفي عام 1497/903م ، قتل الاقتابي الأزعر من قبل جنود الأمير أزدمر، وتبين بعد مقتله انه كان من مشاة الأمير نفسه[140]، وكانوا مع العبيد جزءاً من مشاة الكافل[141]، وعندما وقع خلاف بين الخاصكي نجم الدين وأخ الحاجب في العام نفسه، قام نائب القلعة بمناصرة الخاصكي، فأرسل مشاته من الزعر وأطلق يدهم في الانتقام من جماعة الحاجب وأعوانه ، نتشروا في المدينة لتنفيذ الأوامر ، وقتل كل من أمسكوا به من أعوان الحاجب[142] ، وفي الصراع بين أهل الصالحية والدوادار حول دية عدد من القتلى وجمعها من الناس ، أخذت الزعر بالهجوم على الناس وايذائهم لمدة ستة أيام ، دون أن تقوم السلطة بأية ردة فعل لكبح جماحهم ، باعتبار الزعر أداة لتنفيذ أغراضهم ، ولكن الولاة تدخلوا بعد ذلك حتى تمت المصالحة مع أهل الحي بعد سنة من الأحداث[143]، وفي سنة

1500/906م قام النائب دولات باي بشنق الأزعر المعروف بالشدودي، الذي كان من مشاة النائب قانصوة السابق له[144] ، وفي 1501/907م، بعث نائب القلعة وراء كبير زعر الشاغور المعروف بابن الطباخ، وطيب خاطره وعاتبه ، ثم خلع عليه قشر خوخ ، واخذ عهداً على نفسه أنه لن يطالب أهل حارته بدية أي قتيل عندهم ، إلا من وجب عليه ذلك ، ووقع الصلح بينهم على ذلك ، مما أدى إلى اطمئنان الناس والوالي [145] ، الذي ضمن عدم اعتدائهم على أخيه وعلى البلاصية الجباة، الذين يسرقون أموال الناس عند جمع الضرائب ، ويعود السبب في ذلك إلى إدراك الوالي أنه لم يعد بمقدوره مقاومتهم، وأنه من الأفضل مداراتهم واكتسابهم ، بعد أن ازدادت هيبتهم وسطوتهم[146]، ثم فعل الشيء نفسه مع زعر الحارات الأخرى، فطلبهم وطيّب خواطرهم[147] ، كما تبين بعد وفاة الدواداوار الثاني والأمير صدقه السامري عام 1503/909م، أنه كان في مشاتهم وأعوانهم عدد من مجرمي الزعر[148] ، وفي العام لبس نفسه النائب خلعة من القاهرة ، ولما وصل الى دمشق أتى بزعر الحارات ليمشوا أمامه بالسلاح[149] ، ثم أحضروا الزعر، وتم تحليفهم أمام القضاة على أن يكونوا جزءاً من جماعة السلطان[150] ، وقام الحاجب الكبير بتوبيخ نائب القلعة ، بعد أن تبين له أنه هو من قام بتطميع أهل الزعارة مثل أبو طاقية وجماعة أخرى منهم على التسلط على أموال الناس، والاعتداء عليهم وعلى ممتلكاتهم ، وأنه من كان يوفر الغطاء والحماية لهم[151]، وبعد مقتل الأزعر المعروف بالمهتدي في عام 914هـ/1508م ، تبين أن المهتدي قد ولي مشيخة ميدان الحصى لكونه من مشاة النائب [152] .

ومن الصعب تحديد طبيعة العلاقات وتطوراتها بين السلطة والزعر والمجتمع ضمن مبدأ محدد أو خدمات معينة ، خاصة أن جميع الأطراف لم تنظر لبعضها نظرة تقدير واحترام ، لأن علاقاتهم تتحدد وفقا للأحداث والمصالح الشخصية ، واستغلال كل طرف لحاله الترهل والفساد التي تعيشها السلطة ، ففي عام 902هـ/1496م، انطلق الزعر في شوارع المدينة ، وصاروا يكمنون للناس في الشوارع ليلا ، ويجردونهم من ملابسهم[153] ، وقامت السلطة في عام 904هـ/1498م ، بإطلاق سراح من كان منهم في السجون[154] ، فتجرأوا على السلطة ، وقاموا بتخليص الأزعر قريش كبير زعر حارة الشاغور بعد أن تم القاء القبض عليه من قبل مجموعة من المماليك[155] ، ثم في عام 905هـ/1499م ، قام الأزعر نفسه مع جماعته بتزيين الشوارع من زاوية المغاربة وحتى حارة القراونه ، لاستقبال النائب اثناء عرض عسكري له ، وذلك بعد جباية أموال الاستقبال من الناس ، مستخدمين بذلك شتى ضروب العنف والقوة في نهب الأموال[156] .

ومع التراجع الملحوظ لهيبة السلطة وقوتها قام كبير زعر الشاغور المعروف بأبي طاقية بجمع زعر حارته ، وزعر الغوطة ، وزعر القرى والحارات الدمشقية الأخرى ، وأولموا الولائم التي أخذت أموالها من الناس بالغصب ، ثم قاموا باستعراض عسكري منظم تفوقوا فيه على إمكانيات السلطة ، بعد أن أمدهم الأمير أركماس بالأسلحة اللازمة لذلك[157].

كشفت الأحداث عن وجود تعاون علني وسري بين السلطة والزعر في عدد من الجوانب ، حيث درجت العادة أثناء النزاعات بين الأمراء، واثناء

الحروب الاهلية، لجوء الأطراف المختلفة إلى استقطاب الزعر والتقارب الوقتي معهم [158]، فعندما أعلن نائب غزه آقبردي خروجه على نائب دمشق في عام 902 /1496م وقرر السيطرة على مدينة دمشق، ركب عدد من الأمراء إلى ميدان الحصى، فجمعوا الزعر وأركبوهم على الخيول، في عرض عسكري، باعتبارهم جزءاً من قواتهم، مما كان له أكبر الأثر في مقاومة آقبردي وإفشال حركته [159] وعندما توجه طومان باي في عام 1497/903م، لإخماد فتنه نائب دمشق، لجأ أخو النائب إلى الاتصال مع زعر حارة المزابل لتجنيدهم لصالح النائب [160]، ثم لجأ الأمير يلباي في السنة نفسها لطلب مساعدة الزعر ومناصرته ضد نائب القلعة المعروف بالحواط، الذي أراد إلقاء القبض عليه بعد ورود أمر من السلطان بذلك [161] .

كما قدّم الزعر مجموعة من الخدمات للسلطة فقاموا في عام 903هـ/1497م ، بالمساعدة في إلقاء القبض على رسل أحد الأمراء المعارضين، وتسليمهم للسلطة[162]، وطاردوا كاتب سر دمشق محب الدين الأسلمي ، وحاولوا إلقاء القبض عليه تنفيذاً لأوامر الحاجب[163] ، وهاجموا في عام 910هـ/1504م زاوية الخوارزمية ، وقتلوا شيخها محمد العجمي بالسكاكين، بعد أن طعنوه في مواضع مختلفة من جسده ، وقطعوا رأسه وانتزعوا قلبه أمام ابنته وزوجته، ثم ألقوا جثته في بئر الزاوية ، خدمة للدوادر الذي كان يحقد عليه وعلى خلاف معه [164] ، وأوكل إليهم في عام 906هـ/1500م ، جمع الأموال من الناس من أجل استقبال أمير الحج العائد[165]

.

بالإضافة إلى ذلك كان للزعر مساهمات في العمليات العسكرية الخارجية، ففي عام 908هـ/1502م، جمعوا الأموال من الناس، بهدف تجهيز عدد من مشاتهم، للمشاركة في الحملة ضد أمير مكة، وإقرار الأمن بها بإذن من السلطة [166]، وعرض رأس المباشرين في دمشق عام 909هـ/1503م المشاة من زعر حارات ميدان الحصى والقبيبات وغيرها بالميدان الأخضر، وسيرهم لقتال نائب حلب الذي خرج عن الطاعة [167] ،وأصدر نائب الغيبة الخازندار أمراً في عام 914هـ/1508م، بأن على نائب كل حارة تجهيز عدد من الزعر، لإمداد ملك الأمراء للقتال إلى جانبه، ضد أبناء القبائل العربية المستقرة في منطقة حوران [168].

لقد أدركت السلطة أنه على الرغم من تعدد الخدمات التي قدمها الزعر لهم، فإن عليهم أن يعملوا على كبح جماحهم، وعدم إطلاق يدهم أو منحهم الحرية الكاملة في تصرفاتهم، باللجوء إلى إصدار القوانين التي تحد من نشاطهم تارة ، واستخدام القوة تارة أخرى ، فعندما ازداد فسقهم وتعدياتهم على الناس، بدأ الناس بالاستغاثة بالسلطة في عام 890هـ/1485م، فجهز النائب جميع ما لديه من الجند وأرسل وراء القضاة وأمرهم بالتوجه جميعاً إلى حارة الشاغور لإيقاف ذلك بالقوة ، واستخدام التأثير الديني للقضاة من جانب آخر[169]، وتكرر في الأعوام بين 900هـ/1494م ، وحتى نهاية الدولة المملوكية النداءات في مدينة دمشق بأن لا أحد من الزعر يحمل سلاحاً أو سكيناً، خاصة بعد أن أخذ الزعر بحمل الخناجر المهولة ، وكذلك بإعلان الدولة أن الزعارة بطالة [170]، مما دفع الزعر إلى الاختفاء وقتياً، وعدم الظهور أو الهروب إلى بعض البلدان المجاورة [171]، وعندما صادف بعض مماليك الأمير جان بلاط الدوادار السيد

عريش الأزعر ألقوا القبض عليه، فانتصر له جماعته حتى لا يظهر ضعفهم أمام الدولة وأمام الناس[172]، وألقت الدولة في عام 904هـ/1498م القبض على كل من الأزعر المعروف بالشمعة، بسبب قتله لأحد المغاربة بعد أن هرب إلى مدينة صفد، وأعادته إلى دمشق وقامت بسجنه [173]، وكذلك على كبير زعر الشاغور المعروف بقريش وقامت بصلبه[174]، ووقعت الحرب بين زعر الشاغور في عام 908هـ/1502م ، بسبب قيام النائب بإلقاء القبض على أحد أفرادهم ، بعد أن قام جماعته بالتعاون مع العبيد السودانية بإحراق أجزاء من الحارة ، وقيام زعر الحارات الأخرى بالتوافد إلى الحارة لمساعدة زعرها، فقتل أثناء الصراع شيخ زعر حارة الشاغور، وشيخ زعر حارة القراونه إسماعيل بن بلغام، وطاردت زعر الحارات الأخرى بعد هروبهم إلى حارة مسجد الذبان[175] ، وأعلن الأمير قلج متسلم قلعة دمشق عام 909هـ/1503م ، لأهل المدينة ضرورة ترك حمل الأسلحة ، وتوعد من لا يمتثل للأوامر، وهدد مجرمي الزعر خاصة ، بسبب كثرة اعتدائهم على أموال الناس ، وتصرفاتهم اللاأخلاقية أثناء عرض له قبل ثلاثة أيام من إعلان النداء[176] ، كما تم في عام 912هـ/1506م، شن حملة ضد زعر الصالحية وإلقاء القبض على عدد منهم بسبب فسادهم[177].

كشف تطور الأحداث أن الولاء المطلق من الزعر والسلطة لبعضهما أمر لا يمكن تحقيقه ، خاصة أن كلا منهم لم يكن يثق بالآخر ، لأن هذه العلاقة تخضع للمصالح الآنية ، لا لمبدأ محدد ، وأدرك الزعر في الوقت نفسه أن العامة والناس يشكلون قوة لا يمكن الاستهانة بها ، وأن ضرورة الإبقاء على خيط رفيع من العلاقات معهم أمر في غاية الأهمية ، وعبروا عن ذلك إما

بمحاربة السلطة، وقتل أعوانها، والوقوف ضد ممارساتها عند شعور الناس بالظلم وقيام العامة بالثورة ضد السلطة، ففي عام 902هـ/1496م، قام الزعر بقتل والي دمشق بشير، بسبب أفعاله غير المقبولة[178] ، ورصد الزعر في نفس السنة أحد البلاصية من مشاة نائب حلب، الذي قدم إلى زيارة دمشق، فوجد زعر باب الجابية الفرصة لقتله عند ما كان يتجول عند قصر حجاج أثناء تعاركه مع أحد الصبية[179]، ثم قتلوا في عام 903هـ/1497م ، أحد صبيان المحتسب[180] ، وأحد النقباء[181] ، كما وقعت الحرب بين نقباء الدوادار وزعر باب السريجة بسبب محاولة الدوادار إلقاء القبض على أحد الأشخاص من حارتهم، مما دفع النائب إلى إرسال عدد من الجند لقتالهم، وعاد النائب دون معرفة أحد لما جرى بسبب ذلك [182]، وقتل أحد زعر المزه المعروف بإبن الصوفي رأس النوبة بباب سريجة في وسط النهار، حيث القى القبض عليه وقام بذبحه أمام الناس وفي العلن [183]، وقتل زعر الصوالحة من بني عطا والي المدينة (صاحب الشرطة أيضاً) المنتهية ولايته[184] ، ويبدو أن سبب ذلك يعود إلى الانتقام منه بسبب أفعاله أيام ولايته.

أما في سنة 905هـ/1499م، فقد تحرك الزعر ووقفوا إلى جانب أهل محلة مسجد القصب ضد حاشية النائب، بسبب فرض الأموال عليهم مقابل ديه أحد القتلى، وازداد الأمر سوءاً بعد أن أمر النائب جنده بتوسيط أحد أبناء هذه المحلة دون وجه حق، مما أشعل النزاعات بين الطرفين أكثر فأكثر، كما أرسل السلطان لأحد خاصكيته لأخذ أموال الأوقاف، وقام بمضاعفة الضرائب على الناس، وفرض أموالا جديدة بسبب قيام أحد الزعر بضرب أحد الرجال الأشرار المفسدين والمعروف بخدا الفيلة اللبان [185]، وبعد ذلك قام الزعر بقتل

أحد البلاصية من رؤوس النوب بخان السلطان قرب باب السريجة [186]، وتكررت الأحداث والنزاعات في السنوات التالية وحتى نهاية العصر المملوكي، ففي عام 906هـ/1500م تعاون الزعر والعامة وألقوا القبض على أحد مماليك نائب الشام المعروف باينال الفقيه، بسبب قيامه بقتل جماعة وإخفائهم وامتهانه أعمال بلطجه من تعرية النساء، وأخذ ما شاءوا من أيديهن، ومصادرة أموال الناس، كوسيلة للعيش والتكسب، فهجموا عليه وضربوه بالخناجر، وسحبوه حياً بدمائه على الطرقات، ثم حرقوه بالنار، ولم تفد محاولات النائب لإنقاذه، حيث أرسل بعض الجنود الذين اشتبكوا مع الزعر والعامة دون فائدة [187].

شهد منتصف شهر جمادى الأخرة من عام 907هـ/1501م سلسلة من الأحداث والصراعات الجديدة، بين الزعر والعامة من جهة والسلطة من جهة أخرى، حيث عقد زعر حارة الشاغور وزعر حارة ميدان الحصى اجتماعاً واصطلحوا، وتحالفوا على قتال النائب ودواداره بسبب ظلمه وتسليطهم لأتباعهم على الناس، فتمكن زعر الشاغور من إلقاء القبض على بعض أعوان النائب وجنوده، وأرادوا توسيط أحدهم، مما دفع النائب إلى الإسراع بإرسال قوة عسكرية جديدة لتخليصهم، وعندما سمع زعر الحارات الأخرى بذلك، بدأوا الاحتكاك بالنائب وجماعته، وأسمعوهم الكلام القبيح وقتلوا عدداً من المماليك، فحاول النائب تدارك ذلك بان أرسل إليهم عدداً من الأمراء فلم يعيروهم أي اهتمام ، بل اشترطوا عليهم ضرورة تسليمهم استادار النائب ، وإبن الفقاعي وأخو نقيب المحتسب، وأصروا على ضرورة تنفيذ شروطهم، فلما علم أخو النائب بذلك وكان مشغولاً في شن حملة ضد القرى والأرياف، من أجل جمع

الأموال ونهبها، أسرع بالعودة وأراد معاقبة الزعر والعامة، لكن سرعان ما أدرك أنه عاجز عن فعل ذلك ، خاصة بعد أن أشهر الزعر أسلحتهم وتجهزوا بكامل عدتهم، وتركوا صلاة الجمعة، وأخذوا بالعمل على استفزاز الجند الأتراك وقتالهم، ثم اجتمعوا بعد يومين ودربوا - بناء جدران - في الأزقة ، وقاموا بإحكام أبواب الحارات، واغلاق بعض الطرق الفرعية وسدها بالحجارة والطوب، ومالوا على الأتراك، وحاربوهم ووقع الطعن بينهم، وجرحوا عدداً منهم مما أظهر عجز النائب ، بعد أن حاول أخوه الالتفاف عليهم من الخلف، ظناً منه أنهم مشغولون في الصراع، لكن تبين له أنهم قد أخذوا احتياطهم فأفشلوا محاولته، حيث كانت جماعات قد كمنت لهم في الخلف، وهاجموهم وقتلوا عدداً كبيراً منهم، حتى كاد هو نفسه أن يقع بين أيديهم، وعندما حققوا كل هذه الانتصارات، بدأوا بالتفكير بالهجوم على القلعة، مما أجبر النائب على البحث عن حل آخر، بأن أرسل إليهم بعض الحجاب، وعدداً من القضاة وشيخ الإسلام، فاجتمعوا بأكابر الحارات، فطلب الزعر من النائب ترك ضريبة المشاهرة، وترك فرض الضرائب على البيوت، وضرورة قتل البلاصية، فوافق النائب على شروطهم وتمكنوا من القاء القبض على بعض البلاصية وقتلهم وحرقهم (188) ، كما ترصدوا ابن الفقاعي برددار النائب وتمكنوا من الإمساك به عند توجهه للحمام وقتله (189) ،وبعد عشرين يوماً من هذه الحوادث اضطر أخو النائب الهرب إلى مصر، بعد أن علم أن الزعر مصرين على قتله بسبب تخريبه للبلاد وقتالهم، مع ضرورة الإشارة إلى أن زعر مصلى العيدين قد قاموا بتوديعه في مصلاهم قبل سفره (190).

تجدد الصراع بعد شهرين ونصف بين الزعر ونائب الدوادار، الذي القي القبض على كبير زعر ميدان الحصى المعروف بابن الأستاذ وعلى اثنين ممن كانوا معه، ووسطهم فأسرع زعر الحارات عندما وصلهم الخبر بذلك لإظهار دعمهم لزملائهم، ونشب القتال بينهم بين كر وفر، مما أدى إلى هروب عدد كبير من أهل ميدان الحصى من بيوتهم، وعندما ازداد خوف زعر الحارات وكبارهم من ردة فعل الدولة، قاموا بتدريب الحارات والأزقة ، خاصة بعد مهاجمتهم لدوادار النائب المذكور (191) .

وبعد عودة النائب من حملة نهب للقرى والمناطق المجاورة عام 908هـ/1502م، أرسل وراء كبير زعر باب المصلى أبو بكر المبادل، فطيب قلبه وأمنه (192)، ثم في عام 910هـ/1504م، ذهب أحد أعوان السلطة من الظلمة الكبار إلى ميدان الحصى، لفرض مال على أهلها بسبب قتلهم لأحد العوانية (جواسيس السلطة داخل المدينة)، فلما وصل إلى المزار المشهور بصهيب الرومي خرج عليه جماعة منهم فضربوه بالسكاكين والسيوف، مع عدد من المشاة الذين كانوا معه، ثم سحبوه إلى باب المصلى، ولما تم تكفينه وأرادوا دفنه، هاجمت العامة جنازته، وبدأت الصراعات بين العامة والنائب، وتطورت الأحداث، وأخذ أهل الزعارة بالاستفادة من ذلك ، فتأهبوا لاستغلال حالة الفوضى، ثم عاقب النائب اثنين من التجار لوقوفهم إلى جانب الزعر، ثم هاجم الزعر والعامة حارة العبيد لكونهم أعوان السلطة ، فقتلوا جماعة منهم ونهبوا حارتهم وبيوتهم ، كما هاجموا دوادار النائب أثناء مروره بالمرج(193) ، وفي عام 911هـ/1505م ، ترصد الزعر أحد أعوان الظلمة المعروف بالمغربل، واتبعوه إلى داخل زقاق الجاروخيه وقتلوه(194) .

كانت الحروب بين الدولة العثمانية والمماليك بين عامي 922-923هـ/ 1516-1517م ، قد أفسحت المجال للزعر لممارسة أعمالهم الإجرامية في مثل هذه الأحداث ، فعندما علموا بهزيمة السلطان قانصوة الغوري في مرج دابق، دخلت مدينة دمشق في حالة من الفوضى ، فبدأ الزعر بمهاجمة المدينة وضواحيها ، فهاجموا حارة السمرة وأرادوا حرقها ونهبها ، لكن أهل الحارة دفعوا لهم 1000 دينار مقابل الابتعاد عن الحارة[195] ، ولكنهم مع ذلك هاجموا الحارة وقتلوا عددا من أبنائها وسرقوا أموالهم ، ثم هاجموا تجار الإفرنج، ونهبوا بيوت عدد من الأعيان والقضاة والتجار الدمشقيين، فاضطر قسم للهرب خارج المدينة [196] ، ومنهم مباشر القلعة الذي لحقوا به عند باب الجابية مع حريمه وخلق آخرين فقتلوه ، ثم قتلوا ابن الحنبلية في منزله ، لأنه قام بهدم عدد من المساجد والترب وبيع محتوياتها والادعاء بأنه من الشرفاء ، كما اتجهوا إلى بيت دوادار السلطان والحاجب وغيرهما ، وهاجموا الصالحية وقتلوا سبعة أنفار من أهلها، من ضمنهم العريف السابق، لأنهم كانوا يكرهونه ، وذهبوا إلى بيت القاضي الحنفي ابن يونس وأرادوا قتله، ولكنهم لم يصلوا إلى غرضهم بسبب اختفائه، بعد أن دافعت عنه حريمه بدفع بعض الدراهم لهم، كما حاولوا الاعتداء على ابن الفرفور لكنه صدهم بدفع مئة دينار لهم ، كما أمسكوا القاضي ابن الفيقي فشلحوه ثيابه وجرحوا فرسه[197] ، وقبيل سيطرة السلطان سليم على غزة، تمكن الزعر من تحرير الأمير جان بردي الغزالي من أيدي المماليك الذين وقع في أسرهم[198] .

وعندما علم السلطان طومان باي بتحرك السلطان سليم الأول من غزة نحو مصر ، أمر بالنداء بإعطاء الأمان والعفو عن كل من الزعر والشطار

المتهمين بجرائم القتل ، وأن بإمكانهم الظهور من الأمكنة المختفين بها ، وأن يحضروا للعرض في الميدان ، وأن السلطان سوف يمنحهم الجوامك (المرتبات) والمراكب إذا ما اشتركوا في القتال ضد العثمانيين [199] ، ثم بعد شهر وذلك في 24 ذي الحجة من عام 922هـ/1516م عرض السلطان الزعر قبيل معركة الريدانية وكان عددهم كبيرا ، فوعدهم إن قاتلوا العثمانيين أن يعطي كل واحد منهم عشرة دنانير ، وأن ينعم على كل واحد منهم بسيف وترس ، وطلب من الأمير أنصباي عقد صلح بين زعر الصليبة وزعر المدينة[200] ، وبالفعل ما أن وقعت معركة الريدانية حتى قاتل الزعر إلى جانب السلطان طومان باي ، باستخدام المعاليق والحجارة، وذلك من الصباح حتى المساء [201] ، ثم أعلن أن كل من قبض على عثماني فله ملابسه ، وأن يقطع رأسه ويحضرها إلى السلطان[202] ، ولكن ما أن انتصر العثمانيون حتى انقلب موقف الزعر، فبدأوا بنهب البيوت ، تحت حجة العثمانية[203] ، مما جعل السلطان سليم يأمر بقتلهم فهاجمهم الجند وقتلوا أعدادا كبيرة منهم ومن العوام [204] .

وأما في الشام فقد تحرك زعر الحارات وقتلوا عددا من المماليك الجراكسة ، وحاولوا مهاجمة العثمانين كذلك ، لكنهم عندما أدركوا قوة العثمانيين، دخلوا مع النائب الجديد في المدينة وساعدوه في تحصين القلعة [205] ، ثم جمع النائب أهل الحارات وكتب أسماءهم ، وجعل على كل أزعر مهمة حماية قسم منهم [206] ، وعاد الزعر للتقرب إلى النائب الجديد جان بردي الغزالي حيث خرجوا في عام 925 هـ / 1519م لاستقباله [207].

تنوعت ممارسات الزعر تجاه عناصر المجتمع المختلفة والسلطة ، فكان القتل للأفراد ، والنهب والحرق للأحياء والمنشآت الخاصة والعامة وتدميرها ، والاشتراك في هبات العامة ، والتعاون مع الفئات الساخطة على الأوضاع العامة من الجلبان والعبيد ، والاشتغال ببعض الأعمال اللاأخلاقية من إحدى المميزات الخاصة لهذه الفئة . ففي عام 804هـ/1401م ، قبض على كثير منهم بمدينة دمشق وشُنقوا بكلاليب معلقة بأفواههم ، وذلك بعد انسحاب تيمور لنك ، بعد أن هجموا على الناس وأبادوا الكثير منهم خنقا وقتلا ونهبا، ووجد لديهم الكثير من القماش المسروق ، فتم إحضاره إلى دار النيابة ، وكل من عرف شيئا أخذه (208) .

كان القتل باستخدام أبشع الأساليب والأسلحة المختلفة من الأمور السهلة بالنسبة لعناصر الزعر ، خاصة من كان منهم تحت حماية رجال السلطة ، الذين كان الزعر جزءا من مشاتهم ، فيجدون فيهم أداة طيعة لتنفيذ أعمالهم القذرة ، حيث تذكر المصادر جزءا من هذه الأعمال والتي قد تكون كافية لاعطائنا تصورا جيدا عن أفعالهم ، ففي سنة 902هـ/1496م، قتل زعر الشاغور ابن علاء الدين المغربي الشاهد بباب المصلى ورموه في سياج ، وجرحوا أحد صبيانه المرافقين له (209) ، وقتلوا أحد أبناء اليهود ، وقاموا برمي جثته عند أحد البساتين (210) ، وقام ابن الحموي أحد أبناء عطا الزعر بقتل واحد من أصحاب الدكاكين في باب توما (211) ، كما قتلوا امرأة بضربها بالسكاكين عدة ضربات ، وقتلوا رجلاً على سطح مسجد القصب (212) .

وشهدت سنة 903هـ/1497م، قتل الزعر للشريف محمد بن أحمد بن محمد الكلزي الوهراني بسويقة المحروقة بعد أن ضربوه بالسيوف بداية ، ولكنه عندما تمكن من الوصول إلى زاوية الحصني ، لحقوه إلى هناك وفصلوا رأسه عن جسده ، وذلك لأنه اتهمهم بنهب بيته واشتكى عليهم ، وقد تبين بعد ذلك أنهم من مشاة الحاجب الثالث أحمد بن شاهين[213] ،وفي السنة التي تلتها قتلوا واحدا منهم وهو المجرم الأزعر المشهور بابن الطيبي والقوا جثته في نهر الأنباط ، بمنطقة ميدان الحصى ، كما قتلوا شخصا يعرف بابن الزهوري طعنا بالسكاكين، بعد أن سلبوه ثيابه ، وما عليه من الشاش ، لمجرد تجرؤه على شتمهم بعدما فعلوا به ذلك[214] ، وارتادوا في عام 905هـ/1499م، إحدى الخمارات في النيبطون ، ولكنهم بعد أن سكروا قاموا بقتل صاحب الخمارة المسيحي[215] ، وفي العام نفسه قتلّ الأزعر المعروف بالجاموس وجماعته اثنين من صبيان الصالحية [216].

واغتصب الزعر الشيخ الأمرد خضر بن علاء الدين المغربي ، ثم قاموا بذبحه في أحد الغياض الموجودة في منطقة الربوة ، والغريب أنهم لم يأخذوا لا ملابسه ولا ما كان معه من الأموال (60 درهما)[217].

هاجم الزعر اثنين من أبناء رجل يدعى الطولقي في سنة 906هـ/1500م ، لأن هؤلاء الأبناء كانوا السبب في الوشاية على أحد أفرادهم المعروف بالمزي ، وتمكن السلطة من إلقاء القبض عليه وشنقه ، ولكنهم لم يتمكنوا من نيل غرضهم ، حيث تقاتلوا معهم وتمكنوا من جرح عدد منهم والهرب[218] ، وفي سنة 909هـ/1503م، تمكن عدد منهم من الدخول على شيخ الزاوية

الخوارزمية بسفح جبل قاسيون وهو محمد العجمي المعروف بالطواقي وضربوه بالسكاكين في مواضع مختلفة من جسده ، وعندما هرعت إليه زوجته تراجعوا ، ثم عادوا بعد فترة قصيرة فقطعوا رأسه، وقيل انتزعوا قلبه أمام زوجته وبناته ، ثم رموه في بئر الزاوية، ولم يكن السبب سوى بعض الأحقاد بينه وبين الدوادار ، الذي أغراهم على فعل ذلك [219] .

ويذكر أن زعر الصالحية قاموا في عام 910هـ/1504م، بمهاجمة قباقيبي في حيهم وقتله، ثم بعد أيام جاءوا إلى أبيه الذي كان يتوعدهم ، فأخذوا بمطاردته بين الناس في السوق بعد أن هرب منهم ، إلا أنهم أمسكوا به في النهاية ودقوه بالسيوف دقا هائلا أمام الناس[220]، كما قتلوا شخصا يعرف بإبراهيم بن أحمد الأريحي على باب بيته ، بعد أن تتبعه جماعة منهم وهو عائد من السوق[221] ، وفي سنة 923هـ/1517م، أهلك النائب جماعة من الزعر القتلة المجرمين[222] ، كما شهد عام 926هـ/1520م مقتل شيخ باب الجابية قديدار، عند الباب الغربي لمسجد هشام، على يد جماعة منهم [223] .

لجأ الزعر إلى سرقة أموال الناس علنا وسرا ، وذلك من خلال فرض الأتاوات وجبايتها بالقوة ، ففي سنة 902هـ/1496م خرج أولاد الحموي الزعر شاهرين أسلحتهم المختلفة، وأخذوا بالطواف على الأسواق والتجار والصاغة، وطالبوهم بالأموال ، فلم يجرؤ أحد على مخالفتهم ، وعندما رفض أحد الأفراد في سوق النحاسين دفع ما فرضوا عليه ضربوه وجرحوه[224]، وكان عبدالرحمن بن زريق القاضي يتعانى الزعارة ، وكثيرا ما ساهم في إيذاء الناس وظلمهم ، خاصة إذا ما حضر أحد الخاصكية للتفتيش على أموال الأوقاف ،

فيدّعي أنه قد نم توظيفه لاستيفاء الأموال ، فإذا ما دفع له أحد مسؤولي الأوقاف رشوة تغاضى عنه ، أما إذا رفض دفع ما عليه من رشوة فكان يسلط الموظفين عليه ، مدعيا أنه سارق للأوقاف ، حتى لو كان ذلك الشخص من أكثر الناس ضبطا لما تحت يديه من أوقاف(225) ، كما فرض زعر الشاغور أموالا على محلتهم بحجة عمل ضيافة لزعر ميدان الحصى وزعر القبيبات(226).

وعندما أكثر النواب من الرمايات والمصادرات للناس في سنة 911هـ/1505م ، أخذ الزعر بوضع أيديهم على الحوانيت ، ووضع أفراد فيها يبيعون لهم بزيادة عن الحوانيت الأخرى ، لدفع الأموال المفروضة عليهم من جيوب الناس(227) ، حتى أصبحت معظم الأسواق تحت أيديهم ، وصار كثير مما يباع يذهب إلى جيوبهم ، فتحسنت أحوالهم ، وصاروا يأكلون ويشربون أحسن الأطعمة والأشربة ، وخاضوا في دماء الناس وأموالهم ، واعتدوا على نسائهم ، حتى سمن عدد كبير منهم، وصاروا يمشون وعلى أوساطهم الخناجر الطوال والمذهبة(228) ، وقد توقفت أحوال الناس في عام 913هـ/1507، لكثرة الحوانيت التي استولوا عليها ، وصاروا يضعون فيها أتباعهم ، ويوفرون لهم الحماية ، فيبيعون لهم كيفما أرادوا ، ولم يعد بإمكان أي انسان في الأسواق التي سيطروا عليها من بيع شيء ، إلا إذا استفادوا من ذلك الشخص(229) ، كما أخذوا بالإغارة على الأسواق وفتح الدكاكين بالقوة ، والاستيلاء على كل مايرغبون به من البضائع ، ومن أشهر الأحداث التي تؤكد على ذلك هجومهم على محلة قبر عاتكة في سنة 912هـ/1506م، وفتح حوانيتها بالقوة(230) .

وتمكن الزعر في سنة 752هـ/351م ، من اقتحام بيت التاج أحمد بن كويك وذبحه وسرقة بيته[231] ، ودخلوا إلى بيت إفرنجي في عام 899هـ/ 1494م ، في زقاق كنيسة النصارى وذبحوه، ثم ذبحوا زوجته وجارية حبشية وسرقوا مالا جزيلا من بيته[232] ، واعتدى زعر حارة المزابل على عدد من القضاة والفقهاء في سنة 902هـ/1496م أثناء مرورهم بطريق باب جيرون ، وهم ملثمون، فأخذوا منهم دراهم وملوطة صوف ، وضربوهم وجرحوهم ، كما استولوا على ما كان معهم من أجل صبحية أحد أبنائهم المختون[233] ، واعتدوا على كل من ابن النحاس وأخذوا منه أربعة دنانير ، ومن ابن شهلا أكثر من مئة درهم ، وهاجموا مسجدا عند أحد الطواحين كان فيه دباغون من التركمان ، وأرادوا سلبهم وتعريتهم ، من ملابسهم[234] ، وذهبوا إلى بيت رجل يعرف بالشغري فطرقوا عليه الباب ، فلما فتح لهم قالوا له عشنا ، فقال لهم انتم عشوني ، فلما لم يعجبهم جوابه ضربوه بالسيوف وقتلوه ، وجروه إلى داخل منزله ، وأرادوا نهب بيته ، لولا أن أحد الجيران وهو القاضي إسماعيل الحنفي ومماليكه قد منعوهم من ذلك[235] .

كان قسم من الزعر يعمل كدلالين للجواري[236]، ويمارسون لعبة الشلاق ويتفننون بها ، حتى أصبحت رمزا لهم ، وهي عبارة عن نوع من المبارزة والقتال فيما بينهم أمام العامة ، حيث يرمون بعضهم بالحجارة الكفيات باستخدام المعاليق ، والتي قد تؤدي إلى مقتل عدد منهم ، ومن المشاهدين ، والمارة[237] ، وقد يفطرون في رمضان جهرا[238]، وعند الاحتفال بختان أبنائهم، يتجمعون ويطوفون على حارات المدينة ، ويبدأون بجمع الأموال (النقوط) ، لابسين الملابس المفتخرة ، وراكبين على خيول مجهزة بكامل عدتها ، بمصاحبة

الموسيقى ، والطبول تضرب أمامهم ، وقد يقتتلو أثناء ذلك مع أهالي الحارات عند مرورهم بشوارعهم وأزقتهم(239) .

لم يكن تحريم الخمر والزنا يشكل رادعا للزعر ، فكانوا يشربون الخمر علنا ، ويحمون الخمارات ، ويساهمون في تجارة الخمر وتهريبها (240) ، ففي عام 905هـ/1499م، تم العثور على صبي أسود من الزعر مقتولا بجانب القيمرية ، تبين أن خمسة منهم ، ومن ضمنهم عبدالسلام الحموي الأزعر ، وإبن حشيش ، كانوا يشربون الخمر أمام بيت علاء الدين الحموي الحنفي ، وعندما سكروا أرادوا اقتحام بيته ولكنهم فشلوا، فقتلوا هذا الصبي التابع له ، وقاموا بجر جثته وإلقائها في المكان المذكور(241) ، وبعد ذلك بخمسة أشهر ، وأثناء تعاطي اثنين من كبار الزعر وهم ابن العجمي والشمعة وجماعتهم للخمر في قيسارية للعزاب ، بجانب بيت ابن منصور الأقباعي ، أخذوا بشتم الناس بألفاظ بذيئة ، وسلب ما عليهم من ملابس وشاش ، مما دفع أحد الأفراد لشكايتهم إلى أحد الأمراء الكبار ، الذي سرعان ما أرسل مماليكه ، فاصطدموا معهم ، وألقي القبض على إبن الشمعة وبعض من كانوا معه(242) ، وفي 25 ذي الحجة من عام 902هـ/1496م، كان الشيخ مبارك عائدا من عزيمة في الصالحية ، فاصطدم مع من كان مرافقا له بجماعة من الزعر كانوا ينقلون عشرين حملا من الخمر لصالح الأمير يخشباي(243) .

أما الزنا فيبدو من الروايات أنه كان جزءا من ممارساتهم ، بالإضافة إلى حماية بيوت الدعارة ، وكذلك العمل في مهنة القوادة وحماية البغايا ، فقد كان في سوق الشماعين بالقاهرة عدد من البغايا، يقال لهن زعيرات، ويتميزن بحمل

الحديد ، ووضع إشارات خاصة يعرفن بها ، ولبس زي يتميزن به ، وهو عبارة عن ملاءات من الطرح ، وسراويل من أديم أحمر ، ويقفن في العادة إلى جانب الرجال المشالقين ، في أوقات لعبهم(244) ، كما كان في ربض باب اللوق بعض الملاهي غير الشريفة كالمواخير والنساء الساقطات(245) ، وعلى الضفة البربرية (الغربية) من نهر النيل حي تسكن فيه بنات الهوى ، اللواتي يؤلفن قسما لا بأس به من السكان(246) ، وكان ضاربو الرز في برنبال يحيون حياة داعرة ، مما كان يدفع الكثير من المومسات إلى القدوم إلى هذه المنطقة لجذبهم، حتى إن معظم ما يكسبونه يذهب إليهن(247) .

أما في دمشق ، فقد ورد ورقة للقاضي في سنة 903هـ/1497م، أن كبير زعر الشاغور يزني مع بنت ابن المزلق ، وفي بيتها، وأن الناس قد حذرت القاضي من اقتحام البيت خوفا من قتله على يده ، إذا ما أقدم على فعل ذلك(248) ، كما دخل الرجل الأزعر المعروف ببركات إلى بيت امرأة تعرف بزوجة ابن عنجق ، وعندما أنكر عليه أحد القضاة هذا الفعل حاول قتله ، لولا أن حجز الناس فيما بينهم(249) ، كما شنق النائب امرأة خاطية تعرف بجان سوار بسبب علاقتها مع الزعر(250)، وشنق الكافل كذلك في سنة 904هـ/ 1498م، ثلاثة أشخاص ، كان أحدهم قد اعترف بقتل ابن الطيب الأزعر ، عندما دخل إلى بيته ووجده مع زوجته في الفراش(251) .

إن السمات الرئيسة التي تطفو على السطح للعلاقات البينية للزعر والمجتمع من حولهم تتلخص بعدة كلمات وهي الرفض ، والصراع ، والاقتتال، والعداء ، والتي كانت النتائج الطبيعية لما تميزوا به من صفات ، كالرغبة في السيطرة ، وإخافة أبناء المجتمع وإرهابهم بوسائل أقل ما يقال عنها أنها لا أخلاقيه وإجرامية ، وتفتقر إلى الالتزام بأبسط المثل الدينية والقيم الاجتماعية ، والتي ظهرت واضحة في جميع ممارساتهم خلال الفترات المختلفة ، حتى أصبحت عملية التوفيق والتصالح فيما بينهم، من ناحية ، ومع المجتمع من ناحية أخرى أمرا مستحيلا .

ففي مصر شهد العام 890هـ/1489م، اقتتال طائفتين من الزعر بالسيوف والعصي ، أدت إلى مقتل جماعة منهم ، في حين اكتفت الناس بالتفرج على هذا المنظر الذي أصبح مألوفا ، وذلك لعجزهم عن مجابهتهم والحيلولة دون ذلك[252] ، كما وقع بين الزعر في كثير من الأماكن نزاعات وصراعات وقتل عدد كبير منهم ، حتى وصل الأمر إلى هجومهم على الصليبة بالسيوف[253] ، وغالبا ما كان القتال يطول ويتكرر بينهم، حتى عجز بعض الولاة عن السيطرة على الأوضاع واخماد تحركاتهم[254] ، فقد استمر القتال بينهم عند قنطرة سنان في عام 917هـ/1511م، في يوم فتح السد[255] ، وبذلك فإن الاقتتال فيما بينهم أصبح على ما يبدو ظاهرة عادية، تتكرر وتندلع في أية لحظة وبشكل مستمر، مما جعل المؤرخين لا يخوضون في تفاصيلها .

ولا تختلف العلاقات البينية للزعر في دمشق عما هو في مصر ، ففي سنة 890هـ/1489م، تحارب زعر الصالحية فيما بينهم، مما أدى إلى تخريب الكثير من الأماكن ، وجرح عدد كبير منهم ومن غيرهم[256] ، ثم تكرر القتال بينهم بشكل متواصل[257] ، حتى أن القتال بين زعر ميدان الحصى وزعر القبيبات لم يتوقف طوال العام[258]، وكذلك نشب القتال بين زعر الشاغور وزعر حارة المزابل ، أثناء مرور زعر الشاغور في عرض عسكري من حارتهم ، فقتل منهم بين خمسة إلى عشرة ، بينما كان عدد الجرحى أكبر بكثير، مما أدى إلى اقفال الأسواق والابتعاد عن الصراع الدائر بينهم[259] ، وضُرب في سنة 901هـ/ 1495م، شومان الأزعر في قتال داخلي بينهم ، مما أدى إلى وفاته في اليوم التالي[260] ، وثار الزعر عند باب الجابية وخارجها في عام 902هـ/1496م، واقتتلوا بالنشاب حتى أن واحدا منهم قد رمى طحانا في حوش الطوائف بسهم فقتله ، مع أنه لم يكن له أدنى علاقة بالصراع[261] ، وتجمع كذلك زعر ميدان الحصى وزعر الشاغور، واقتتلوا في تربة باب الصغير ، فقتل واحد من الحصوية وجرح عدد كبير من زعر باب الشاغور ، فحاول الأمير الكبير الفصل بينهم ، إلا أنه قد فشل ورفضوا التوقف عن الاقتتال[262] .

وفي أيام التشريق اجتمع زعر الحارات المختلفة غربي ميدان الحصى على وليمة عملها زعر الميدان من أجل عقد مصالحة فيما بينهم ، وقاموا بإجبار الناس من الفقراء والمساكين والمحتاجين بتمويل الوليمة بالقوة، ولكنهم سرعان ما اختلفوا ، ونهبوا كل ما تم جمعه ، وتفرقوا دون تحقيق هدفهم[263] ، ثم وقع القتال بينهم في جوار منطقة الشيخ رسلان ، فقتلوا عددا منهم وجرحوا آخرين ، ولم يتوقفوا عن القتال إلا بعد أن قام الأمير الكبير باعتقال بعض كبرائهم[264] ،

واقتتل زعر ميدان الحصى وزعر الشاغور في 12 محرم 903هـ/1497م، بمحلة مسجد الذبان ، حيث استمر القتال فيما بينهم في اليوم الأول إلى ثلث الليل ، ثم في اليوم الثاني ازدادت الأمور حدة بينهم فهاجموا السويقة المحروقة بالنشاب ، وهدموا الكثير من أماكنها ، إلى أن جاء الحواط خال السلطان مع الأمير الكبير وأصلحوا فيما بينهم في اليوم الثالث[265]، وتحولت زفة عرس في عام 922هـ/1516م، إلى حلبة للقتال بين الزعر، أدت إلى جرح عدد منهم ومقتل آخرين ، مما دفع الاستادار إلى معاقبة أهل الحارات التي ينتمون إليها، بفرض الغرامات ودفع دية من قتل من أهل الحارتين[266] .

أما علاقتهم مع العبيد فكثيرا ما كانوا يقاتلونهم، لأن كلا منهم يحاول إظهار قوته[267]، ولكنهم أحياناً يتعاونون معهم ومع الجلبان في عمليات النهب، في حين أن العشير والزعر كانوا يرفضون قتال بعضهم، ولذلك عندما حاول الدوادار أن يضربهم ببعضهم في عام 890هـ/1485م، رفضوا وقالوا له " إن هؤلاء حصوتنا " أي عزوتنا وسندنا[268].

تعد الأعمال والممارسات والفكر الذي تحمله أية جماعة مُحددا رئيسا لموقف الآخرين وعلاقتهم ونظرتهم لهم ، وعادة ما يكون للطبقة المثقفة موقفا مختلفا عن الآخرين ، فقد وقف الفقهاء والقضاة والعلماء موقفا مضادا للزعر، تمثلت بإطلاق عدد من الأوصاف والألفاظ والعبارات عليهم ، وعدم الاعتراض على مجموعة العقوبات التي تمارس ضدهم، إذ كثيرا ما أشير إليهم بالمجرمين والزناة ، والسكارى ، والقوادين ، والمناحيس ، ومردة الإنس ، والأوباش ، وعند قتل واحد منهم فإنهم لا يستحقون مجرد الترحم عليهم ، وغالبا ما ردد

العلماء والفقهاء عبارة أراح الله العباد والبلاد منهم بعد مقتل أحدهم أو إعدامه، وذلك كتعبير عن مدى المقت لهذه الجماعة ، وعدم قبول أي خدمات منهم أو التعاون معهم خاصة من قبل الشخصيات التي تحترم نفسها ، فعندما عرض زعر الشاغور خدماتهم في عام 903هـ/1497م، على قاضي القضاة ، وأنهم على استعداد لأن يصبحوا من أعوانه ، رفض وأجابهم " ما لي شيء معكم"[269] ، كما رفض أحد الفقهاء مجرد استقبالهم والتحدث معهم[270] .

وبما أن الفقهاء والقضاة لم يكونوا على درجة واحدة من العفة والنزاهة، خاصة في ظل فساد السلطة والنظم الإدارية والنظام القضائي في تلك الفترة ، فإن منهم من تعاون معهم سرا وعلانية ، لتنفيذ بعض الأعمال ، فقد كان قاضي الحنابلة في الصالحية " يقوي رؤوسهم " أي يدعمهم بهدف اكتسابهم ، لاستغلالهم في تمرير بعض الأعمال الشخصية واللاأخلاقية[271] .

وفي سنة 902هـ/1496م، أصدر بعض الفقهاء والقضاة فتوى تشجع الزعر وتبرر لهم قتل العوانية، أي جواسيس السلطة بين الناس (المخبرين في عصرنا الحالي) ، فاستغل الزعر هذه الفتوى وقاموا بقتل الخصوم ، والتحول إلى قتلة مرتزقة، فكل من دفع لهم مبلغا من المال لقتل أحد أعدائه سرعان ما حققوا له مطلبه بحجة أنه عواني ، وقد راح ضحية ذلك عدد من الفقهاء والقضاة أيضا ، كقاضي حمص الذي قتل في دمشق أثناء زيارته للمدينة ، حيث دفع أحد منافسيه ومعاديه مبلغا لزعر الشاغور لتنفيذ المهمة , بالإضافة إلى قتلهم ثلاثين فردا من أهل الصالحية ، ومئة من أهل دمشق في فترة قصيرة لم تتجاوز الشهرين ، مما دفع بعض الفقهاء إلى الاعتراض وتخطئة من أصدر

الفتوى، ومنهم عبد الهادي بن المبرد الحنبلي الذي كتب كتابا يعترض فيه على الفتوى ، ومظهرا فساد من أصدرها ، وأن هذه الفتوى محرمة ، وضرورة التراجع عنها ، وكتب بذلك كتابا، بعنوان "ذم الهول والذعر من أحوال الزعر والعصبيات وما يحصل في ذلك من الفتن والبليات " ، أكد فيه أنه لا يجوز لأي إنسان من العوام ،أن يقوم بتنفيذ القانون بيده ، لأن تنفيذ جميع أنواع العقوبات مهما كان نوعها من حق الإمام أو من ينوب عنه فقط [272] ، خاصة أن الزعر ليسوا سوى مجرمين وزناة وتجار خمر وكل ملبسهم ومأكلهم من الحرام ، وذلك بفرض الأتاوات وتنفيذ الأعمال الإجرامية أصلا .

كما ينعكس موقف الفقهاء من خلال إقرار النظام الصارم للعقوبات ضدهم ، إذ من الفقهاء من أجاز جميع أنواع العقوبات صراحة أو ضمنا ، وذلك بعدم الاعتراض عليها بالرغم من أن الكثير منها غير موجود في القرآن والسنة ، باعتبارهم مجموعة من الوحوش في صور آدمية ، وهو ما اثبتته جرائمهم، من طعن للأشخاص عند اعتدائهم عليهم عدة طعنات ، ومن التمثيل بالقتلى في الأماكن العامة ، ومن إذلال للناس بانتزاع الأموال منهم بالقوة ، دون تفريق بين غني أو فقير ومحتاج، مدللين بذلك على أن الرحمة ليس لها أي مكان في قلوبهم .

لذلك تنوعت عقوبات الزعر ، فقد أقر حبسهم في سجون أصحاب الجرائم ، وضرورة تحويل ظروف سجنهم إلى شكل من أشكال الجحيم ، بعدم إعطائهم فراشا للنوم ، ودون أغطية لستر أجسادهم ، وعقابهم نفسيا بعدم السماح لذويهم بزيارتهم أو الاتصال بهم[273] ، وفي حالة ارتكابهم لجريمة الزنا فلا بد من جلدهم ، ونفيهم من البلاد ، مع ترك مدة النفي ، ومكانه وفقا لرغبة

الحاكم[274] ،ووصل بعض الفقهاء إلى حد إقرار عقوبة الرجم عليهم[275]، وكذلك إقرار جواز تعذيبهم بشتى أنواع العذاب ، وعدم قبول توبتهم ، لأن " الشهوة والهوى " قد أصبحتا جزءاً من طبيعتهم وتكوينهم [276].

نظر بعض الفقهاء للزعر بأنهم بمثابة قطاع طرق في المدن ، ولذلك فإن عقوبة القطع للأيدي والأرجل من خلاف ، أصبحت من العقوبات الطبيعية بحقهم [277] ، كما أجيز توسيطهم ، وذلك بفصل الجزء العلوي عن الجزء السفلي من الجسد، بواسطة سيوف كبار مخصصة لذلك ،[278] ولم يعارض الفقهاء عقوبة الشنق بمشانق عادية، أو باستخدام الكلاليب في حنكهم عند تعليقهم [279] .

ومن العقوبات الأخرى التي مورست ضدهم عقوبة السلخ ، بحيث يسلخ الواحد منهم كما تسلخ الشاة ، بفارق أنهم عادة ما يسلخون وهم أحياء [280] ، وكذلك الضرب بالسياط ضربا مبرحا ، وإشهارهم [281] ، وقطع رؤوسهم [282] ، وسمل عيونهم ، وقطع ألسنتهم [283] ، والتمثيل بهم كجدع أنوفهم [284] .

كما أطلقت الدولة في بعض الأحيان أيدي الولاة (رؤساء الشرطة) في التعامل مع الزعر ، وعدم الاعتراض على كل ما يتخذونه من إجراءات ضدهم ، دون الانتظار لمحاكمتهم ، وفور إلقاء القبض عليهم [285] ، وصلبهم [286] ، وإعدامهم بواسطة الخوازيق الغلاظ من أدبارهم وظهورهم [288] ، وإذا ما قتلوا من قِبل الناس فليس من الضروري البحث عمن قتلهم أو معاقبة قاتليهم [289] .

ولا يختلف موقف أبناء المجتمع الآخرين من الزعر عن غيرهم ، فهم نهابون وقتلة ، ولا بد من التصدي لهم والابتعاد عنهم قدر الإمكان ، ولم يروا بأسا في قتلهم، حيث صار الناس يتوقعون أفعالهم في الأزمات فيقومون بتدريب حاراتهم ، وتكوين لجان حراسة مسلحة في حاراتهم حتى يقفوا أمامهم عند محاولاتهم للنهب والسلب وحرق الأحياء ، وقتالهم عند الضرورة ، ولذلك لم يتورع أهل الشاغور في عام 903 هـ /1497م، عن قتل (شاب أقباعي بسبب انضمامه إليهم) [291] ، وعدم تقديم أية مساعدة لهم ، فعندما ألقى الدوادار القبض على أحدهم ، استنجد بالناس لتخليصه ، إلا أن استغاثته لم تجد آذانا صاغية، فرفضوا تقديم أية مساعدة له [292] ، وأظهرت الناس الفرح الشديد بتوسيط الحاجب خير بك عددا منهم في عام 907 هـ /1501م [293] ، وشكروا الوالي عندما قبض على جماعة من زعر الصالحية ، باعتبار فعله إراحة للبلاد والعباد من شرهم [294] .

الخاتمة:-

نخرج من البحث بأن الزعر عبارة عن جماعات من فتوات المدن، الذين امتهنوا مجموعة من المهن اللاأخلاقية والأعمال الاجرامية، وبالتالي يعدون من أهل الجرائم أو الفساد ، الذين كانوا إما من رواد السجون أو من الخارجين منها، والصفة المميزة لهم بأن دينهم وإلههم الدينار والدرهم، وهو محركهم للقيام بأعمالهم، بغض النظر عن مدى أخلاقية أو رضى المجتمع عن أعمالهم.

كان الزعر صورة للنظام السائد في تلك الفترة، فالمماليك ليسوا أكثر من دولة استبدادية اقطاعية عسكرية، كانت القوة وتمجيدها ونهب ثروات البلاد والاستحواذ عليها الأساس للعلاقات فيما بينهم ، ويرون ضرورة اخضاع المجتمع من خلال ذلك، لذا رأى الزعر أن مكانة الفرد ترتبط بمدى التصاقه بالسلطة الحاكمة، وممارسة العنف لإخافة الناس وإرهابهم، فلذلك نراهم يتقربون من الأمراء المماليك الكبار، ويتقربون إليهم أما بالتحول إلى جزء من قوات المشاة التابعة لهم ، أو من خلال الاستعداد لتنفيذ كل ما يطلبه هؤلاء الأمراء ، مقابل توفير الحماية لهم أو مقابل مبلغ من المال يرميه لهم هؤلاء الأمراء ، كما ترمى العظام للكلاب ، وبالتالي اشباع رغبتهم الدفينة بالشعور بامتلاك السلطة والقوة .

كان الزعر على استعداد تام لتنفيذ رغبات الأمراء، فلم يتوانوا عن قتل الأخرين من أجل إرضاء أسيادهم من الأمراء التابعين لهم، وكذلك الاشتراك في الثورات التي كان يقوم بها الأمراء ضد بعضهم، إذ عادة ما يقفون إلى جانب الأمير الذي يعتقدون أنه سوف ينتصر ، فلذلك لا نجد أي مبدأ يحكم علاقاتهم مع الأمراء سوى المنفعة والمصالح الخاصة.

لم يعرف الزعر معنى الانتماء لأمة أو لجماعة أو لوطن، وإن كل ما قاموا به من أعمال في مقاومة الدولة في بعض الفترات ، عندما كانت تفرض بعض الضرائب ،أو قتل عدد من الموظفين الفاسدين ، لا يعني بالمطلق أنهم عنصر كابح ومقاوم لتوجهات السلطة، بل العكس من ذلك، إذ الهدف من كل أعمالهم إثبات قوتهم ، حتى يقوم الأمراء بمحاولة اكتسابهم إلى جانبهم، وحتى يؤكدوا أن فكرة اكتسابهم أفضل من معاداتهم، لأن الأمراء يمكنهم الاستفادة من

هذه العلاقة وتجييرها لصالح إحباط المجتمع والسيطرة عليه، فلا الوطنية دافع، ولا الدفاع عن الضعفاء من مسؤوليتهم، ولا حرمة الحياة عائق ، ولا الانتماء لمجتمع أو لأمة أحد مبادئ حياتهم.

انعدمت أدنى درجات الثقة بين الزعر والسلطة والأمراء ، بما أن هذه الجماعة كانت ممقوتة داخل المجتمع، وان مبدؤها الدينار والدرهم، ولذلك كان من السهل التخلص منهم في أية لحظة فعادة ما كانت تستغل السلطة الموقف العام منهم، وتقوم بحملات ضدهم بين سجن وقتل، دون اكتراث أحد بمصيرهم، كما هي الكلاب الضالة التي لا يأبه أحد بمصيرها، فإن سُجنت أو قُتلت، فلا أحد يسأل عن مصيرها، وقد أدركت الدولة ذلك بأن كل من يقتل منهم لا قيمة له، لأن الناس تؤيد مقتلهم والتخلص منهم في جميع الأحيان ، حتى إنهم كانوا يمجدون اليد التي تقتلهم، من باب قتل الظالم للظالم حق مشروع ضمناً لا شرعا ونصاً. ومن باب أنهم عبارة عن آفة اجتماعية، وكان التقليل منها أو القضاء عليها أكثر صحية للمجتمع.

عَدَ الزعر اضطراب الأوضاع السياسية وحياة البؤس من الفقر والمرض والأوبئة أنسب الفرص للانقضاض على الناس، مثل الوحوش الباحثة عن الفرائس الضعيفة ، ولذلك فإن جل أعمالهم في مثل هذه الأوضاع يتجه لسرقة الناس ونهب بيوتهم وإحراق دروبهم وحاراتهم والاعتداء على النساء وسلب الرجال لأموالهم وملابسهم واجبار الناس على دفع أتاوات لهم مقابل كف اعتدائهم فقط ، وذلك بدلاً من أن يقفوا إلى جانب الناس في المحن والضوائق، والشيء الملفت للنظر أنهم في أوقات الحروب والفتن وبعد انتهائها، سرعان ما

ينتظمو في مجموعات، تأخذ كل جماعة على عاتقها مهاجمة جزء من الحارات والمدن، تماما كما يفعل قطاع الطرق.

إن تحول الزعر إلى مجموعة من المرتزقة لم يكن بالأمر الصعب، فكل من توجه إليهم لقتل أي إنسان أو إهانته مقابل دفع مبلغ من المال سرعان ما ينفذون رغبته. دون النظر إلى هل هذا الإنسان مظلوم أم خير، لأن الأمر المهم لديهم هو المبلغ المالي المدفوع ، فهم في الحقيقة عباد للمال لا لله، حيث اعتادوا على عدم تأدية الصلوات والفروض الدينية، واستبدال ذلك بعبادة المال ، فالقرش إلههم الأعلى، والانسان في نظرهم أرخص بكثير من أن يقارن ببريق النقود الذهبية، وتعطشهم لبسط القوة والسطوة على الآخرين.

يتلخص الموقف العام من الزعر بالاحتقار والازدراء لجميع أعمالهم ، وأن من لا يَرحَم لا يُرحَم، ولا يستحقون إلا مكافأة واحدة ، هي استمرار القتال والنزاع فيما بينهم ، وتشجيع ذلك واذكائه بشتى السبل، وايقاع أقسى العقوبات بهم ، وضرورة التخلص منهم ، فمن لا خُلق له، فلا أدب ولا دين له، وقد لاحظنا أن الفقهاء عندما أفتوهم ومنحوهم حق قتل العوانية، صار كل من يدفع لهم مبلغا من المال لقتل شخص تحت هذه الذريعة سرعان ما قاموا بتنفيذ ذلك، حيث قتلوا في مدة لا تزيد عن شهرين أكثر من منه وثلاثين شخصاً من مدينة دمشق وحي الصالحية وحدهما، وهذا يؤكد أنه لا يحق لأي انسان أن يمجد أي عمل يقومو به، وأن يصفوا كل أعمالهم بالجرائم التي لا يمكن التسامح معها ، فمن يقتل انساناً بتلك السهولة، ويمثل به بعد القتل، تكون صفة الإنسانية قد انتزعت من داخله ، ولم يعد ينتمي إلى عالم الإنسان، بل هو أسوأ، لأن الحيوان

ينطلق من غزيرة القتل للبقاء لا حباً في المال. ولأن طبيعة الانسان السوي والسليم وغير المريض نفسيا، هو الخير والابتعاد عن الشر.

وبالرغم من عدم وجود أسباب تحدد ما هي العوامل التي أدت الى ظهور هذه الفئة في المجتمع، إلا اننا يمكن استنتاج ذلك من عدة أمور أولها طبيعة العصر المملوكي الاقطاعي العسكري الاستبدادي، حيث كان الزعر صورة لهم، فقد كان هذا العصر عصر تمجيد للقوة، وبسبب سوء الظروف الاقتصادية فالزعر كانوا يريدون الحصول على الثروة بغض النظر عن الوسائل. وهو إفراز لهيمنة الطبقة المملوكية على ثروات البلاد، لأن الثروة كانت وما زالت أحد أهم مصادر القوة في المجتمع، فالناس عبيد للدينار، ومن لديه المال سرعان ما يتحول إلى أحد مراكز القوة المؤثرة في المجتمع، وهو ما نراه في أيامنا الحالية، خاصة أن الثروة ما زالت في مجتمعاتنا الحالية تتركز بيد فئة قليلة وعلى رأسها الطبقة الحاكمة وأبناءها والمقربون منهم، والتي تصل إليهم بأسهل الطرق لأن دولنا عادة لا تفصل بين الذمة المالية للحاكم، والذمة المالية للدولة، فكل ما في الدولة ملك للحاكم وأعوانه، وثالثها إن هذه الفئة غالباً ما يتميز أفرادها بالجهل، ولذلك يرون في اظهار قوتهم وجبروتهم غطاء لإخفاء جهلهم، ويرون القوة العضلية بديلاً لقوة الفكر والعقل الذي لم يعتادوا على استعماله بالشكل السليم، ورابعها هجرة عدد كبير من أهل الأرياف والمناطق الأخرى الى المدن، فعندما لا يجدو حرفة او مهنة لهم كونهم زراعاً او أصحاب مواشٍ فيضطرون للانتماء الى مثل هذه الجماعات، فحياة المدن تقوم على الحرف والصناعة والتجارة ، فيتحولون بالتدريج إلى جماعات منبوذة داخل المجتمعات الجديدة ، وخاصة أصحاب الجرائم الذين دخلوا السجون فيجدون الزعر كأفضل

جماعة تتساوق مع توجهاتهم ، وسادسها: قد يكون عن طريق الإرث ولذلك رأينا أن الزعارة في بعض الأحيان قد تكون في عائلات معينة، مثل آل الذهبي وآل عطا اللتين أصبحت الزعارة جزءا من تراثهم وحياتهم الطبيعية.

ومن أوجه الخلاف بين الزعر في دمشق ومصر ، أن نشاط الزعر في دمشق قد انصب في كبح الناس وممارسة الضغط عليهم ، أكثر مما كان عليه الحال في مصر ، حيث كانوا يركزون هجماتهم وأعمالهم على البسطاء وممارسة ضروب البلطجة عليهم ، من خلال مصادرة أموالهم وفرض الأتاوات عليهم ، ومن لم يدفعها يتعرض للإهانة والضرب ، دون أن تقف السلطات ضدهم ، لكن في مصر لم نسمع عن ذلك ، ولعل السبب أن قبضة السلطة في مصر أكثر قوة من دمشق ، كما أن الأحداث السياسية التي تعرضت لها دمشق تختلف كثيرا عن مصر ، فهجمات المغول ومن ثم تهديد العثمانيين في الشام قد أدى إلى انشغال السلطة في مواجهة هذه الأخطار ، مما كان يوفر البيئة المناسبة لممارسة نشاطاتهم ، بينما في مصر لم نجد ذلك ، وبالمجمل العام فإن عليهما غالبا ما كانو قوى سلبية ، كما يلاحظ ظهور طبقة من النساء الزعيرات في مصر، بينما لم نسمع عن ذلك في بلاد الشام .

حصل الزعر على أرزاقهم بعدة وسائل أولها: عبر السلب والنهب في فترات الحروب ، كما في هجوم التتار على دمشق في نهاية القرن السابع ، وفي عهد تيمورلنك في بداية القرن التاسع ، وعند فتح العثمانيين لبلاد الشام ومصر، والحروب الأهلية بين الأمراء والثورات على السلاطين ، وأثناء الكوارث الطبيعية مثل الزلازل والأوبئة والطواعين والمجاعات ، حيث يقومون باستغلال ذلك في نهب الناس والأسواق والحارات والخانات والمؤسسات العامة

والخاصة ، مستغلين انعدام الأمن والفوضى وعدم قدرة الدولة السيطرة على الأوضاع .

ارتزق قسم من الزعر بالعمل كجند مشاة لدى الأمراء (ميليشيا خاصة) ، للاستفادة منهم في القاء القبض على المناوئين للأمير التابعين له ، وفي أعمال الاغتيال ، وتنفيذ الأعمال اللاشرعية التي كان يمارسها هؤلاء الأمراء من تهريب للخمور، وحماية الخمارات ، وتسهيل أعمال الدعارة .

لم يكن أي مانع لدى الزعر من التحول إلى قتلة محترفين ، فلم يكن لديهم أي رادع من قتل أي انسان مقابل مبلغ من المال ، ودون الاهتمام لسبب القتل .

لجأ الزعر كذلك إلى سرقة أموال الناس إما بالسر أو العلن ، فكانوا بكمنون للناس في الطرقات والأماكن المظلمة ، وعندما يمر بهم شخص ما سرعان ما يهاجمونه ويجبروه على نزع ملابسه ، بعد إفراغ كل ما في جيوبه . كما اعتادوا فرض الأتاوات على الناس من أصحاب المعايش والتجار والحرفيين وأهل الصنائع وجمعها بالقوة . وإجبار الناس على تقديم الأطعمة لهم ، مع الإشارة إلى أنه بعد تلك الأفعال عادة ما يجرحوا الشخص المعتدى عليه لترك علامة في وحهه حتى لا يقاومهم الآخرون إذا ما تعرضوا لنفس الموقف ، وقد وصلت الأمور في بعض الأحيان إلى القتل إذا ما أبدى أحدهم أي شكل من أشكال المقاومة أو إذا تعرف على شخصية المعندين ، أو لمجرد رفع شكوى ضدهم .

وأخيرا فإن قسما منهم قد عمل ببعض الحرف ، فيستنتج من ألقابهم أن منهم من عمل بالطواقي ، أو السباكة ، أو حياكة الملابس ، أو التجارة ، أو الدلالة ، أو المساهمة في الوقوف إلى جانب احد الثوار ، أو الاشتراك في الحملات العسكرية كجند مرتزفة مقابل مبلغ من المال ، والحصول على جزء من الغنائم ، ونهب المناطق المفتوحة .

وبالرغم من مرور الزمن ودخول الناس في عصر الحضارة والانترنت والتقدم العلمي والتكنولوجي ، الذي لم تشهده أيه فترة في تاريخ البشرية ، فإن الزعارة ما زالت تعيش في جميع المجتمعات ، إما على شكل عصابات ، أو تحت مسميات جديدة، ولكن مع تطور أكثر في الممارسات والأساليب، حيث يطلق عليهم البلطجية في مصر، والشبيحة في سوريا، والبلاطجة في اليمن، والزعران والدواوين والخربنجية في الأردن. الذين تتركز أعمالهم في الهجوم على أصحاب المحلات وفرض الأتاوات عليهم أثناء الاضطرابات الاجتماعية أو السباسبة ، أو حماية الملاهي الليلية مقابل مبالغ من المال ، وهم غالبا ما يكونوا من أصحاب الجرائم أو من المناطق المكتظة بالسكان ، الذين غالبا ما يعانوا من أوضاع اقتصادية سيئة ، أو من عائلات كانت تمارس ذلك ، وعادة ما يتصارعوا مع بعضهم بسبب تضارب المصالح ، ولإثبات سيطرتهم على منطقة معينة (تحت حمايتهم) ، كما يطلق مصطلح الزعران في لبنان على ميليشيات حزب الله والميليشيات التابعة لحركة أمل الشيعيتان، الذين غالبا ما يحاربوا الثورات الشعبية (السنية) ويفرضوا الأتاوات على بعض الجماعات خاصة المهاجرون السوريون الهاربون من أتون الحرب ، والشماكريه أو الشباب الملكي في المغرب، وميليشيا النظام في تونس، والمرتزقه في ليبيا ،

والرباطة في السودان، وهم الذين استخدموا في عالمنا العربي في كبح ما اصطلح عليه ثورات الربيع العربي، من خلال الاندساس بين المتظاهرين السلميين ، واطلاق الرصاص على الجماعات الممثلة للحكومة بهدف تبرير الجرائم التي تقوم بها الدولة فيما بعد ، باتهام المعارضة أو المتظاهرين بأنهم البادئين في استخدام القوة ، وتحويل المظاهرات السلمية إلى شرك لتصفية المعارضين مقابل مبالغ زهيده من المال ، والارتباط مع العناصر الحاكمة في بلادنا لمجرد اشباع رغبتهم بالشعور بالأهمية وامتلاك القوة .

ومن أوجه الخلاف بين الزعر في دمشق ومصر ، أن نشاط الزعر في دمشق قد انصب في كبح الناس وممارسة الضغط عليهم ، أكثر مما كان عليه الحال في مصر ، حيث كانوا يركزون هجماتهم وأعمالهم على البسطاء وممارسة ضروب البلطجة عليهم ، من خلال مصادرة أموالهم وفرض الأتاوات عليهم ، ومن لم يدفعها يتعرض للإهانة والضرب ، دون أن تقف السلطات ضدهم ، لكن في مصر لم نسمع عن ذلك ، ولعل السبب في ذلك أن قبضة السلطة في مصر أكثر قوة من دمشق ، كم أن الأحداث السياسية التي تعرضت لها دمشق تختلف كثيرا عن مصر ، فهجمات المغول ومن ثم تهديد العثمانيين في الشام قد أدى إلى انشغال السلطة في مواجهة هذه الأخطار ، مما كان يوفر البيئة المناسبة لممارسة نشاطاتهم ، بينما في مصر لم نجد ذلك ، وبالمجمل العام فإن كلاهما غالبا ما كانوا قوى سلبية ، كما يلاحظ ظهور طبقة من النساء الزعيرات في مصر بينما لم نسمع عن ذلك في بلاد الشام .

وفي النهاية فإن الزعارة منهج يقوم على القتل والسرقة والنهب والعنف، والإرهاب للآخرين، وانعدام الأخلاق واستبدال القيم الإنسانية جميعاً وتحويل المال إلى المعبود الأوحد، وقتل الآخر في مقابل ذلك، أفلا ينطبق ذلك على أفراد وحكومات، ودول وامبراطوريات تعيش في عالمنا الحالي، أو على مؤسسات وأجهزة المخابرات في كل دول العالم ، التي تنفذ كل ذلك تحت ذريعة حماية الأمن القومي ، ومقاومة الارهاب.

الحواشي

1. الفراهيدي ، العين ، ص 352 / الأزدي، جمهرة اللغة ، ج2 ، ص 705 / الهروي ، تهذيب اللغة ، ج2 ، ص80 / الصحاري ، الأنساب ، ص 158 / القالي ، المقصود ،ص 246 .
2. الفارابي ، الصحاح ، ج2 ، ص 670 .
3. الهروي ، تهذيب اللغة ،ج2 ، ص 80/ الصحاري ، الأنساب ، ص 115 .
4. الفراهيدي ، العين ، ص 352 / الأزدي ، جمهرة اللغة ، ج2 ، ص 705/ الهروي ، تهذيب اللغة ، ج2 ، ص 80 / الفارابي ، مختار الصحاح ، ج2 ، ص 670 / ابن منظور ، لسان ، ج4 ، ص 323 / المرزبان ، تصحيح التصحيح ، ص 779 / الصحاري الأنساب ، ص 115 / المعجم الوسيط ، ج1 ، ص 393 .
5. الفراهيدي ، العين ، ص 352.
6. الصاعدي عبدالرزاق ، موت الألفاظ ، ص 409 .
7. الأزدي ، جمهرة اللغة ، ج2 ، ص 1173 .
8. ابن منظور ، لسان ، ج4، ص286 .
9. ابن خلدون ، مقدمة ، ص 160 .
10. الفراهيدي ، العين ، ص 320 / الجواليقي ، التكملة والذيل ، ص908 / ميارة ، الاتقان والأحكام ، ج2 ، ص 276 / الصفدي ، تصحيح التصحيف ، ص 26 / ابن منظور، لسان ، ج4 ، 286 / الهروي ، تهذيب ، ج2 ، ص 120 .
11. ابن حجر ، فتح الباري ، ج6 ، ص 613 / عصام هادي ، صحيح ، ص 36 .
12. الفراهيدي ، العين ، ص 32 / الجواليقي ، التكملة ، ص 908 / ابن منظور ، لسان ، ج4 ، 286 / الصفدي، تصحيح التصحيف ، ص260 / المرسي ، المحكم ، ج2 ، ص 7 ميارة ، الاتقان والأحكام ، ج3 ، ص 276 .
13. التونسي ، محمد بن الظاهر ، التحرير والتنوير ، ج22 ، ص 107 .
14. السمين الحلبي ، عمدة الحفاظ ، ج3 ، ص 182 .

15. ابن منظور ، لسان ، ج 4 ، ص 286 / الهروي ، تهذيب اللغة ، ج2 ، ص 120 /المرسي ، المحكم ، ج2 ، ص 7 .
16. المرسي ، المحكم ، ج2 ، ص 7 .
17. الذهبي ، سير ، ج19 ، ص324 / ابن قاضي شهبة ، طبقات ، ج6 ، ص 208 .
18. ابن الجوزي ، المنتظم ، ج12 / ص157 ،169 / الذهبي ، سير ، ج3 ، 353 / السخاوي ، الضوء ، ج3 ، ص 296
19. العيني ، عقد الجمان ، تحقيق عبدالرزاق قرموط ، ص 127.
20. الذهبي ، سير ، ج22 ، ص 178-179 .
21. المقريزي ، خطط ، ج3 ، ص44 .
22. المقريزي ، السلوك ، ج2 ، ص363 .
23. الذهبي ، تاريخ ، ج47 ، ص 37 / المقريزي ، السلوك ، ج4 ، ص 19 ، 26 / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج10 ، ص 23 ، 123 / السخاوي ، وجيز ، ج1 ، ص 16 / القاضي عبدالباسط، نيل ، ج1 ص 146 ، ج2 ، ص127-128 .
24. المقريزي ، السلوك ، ج5، 67 / ابن حجر ، إنباء ، ج1 ، ص 299 / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج2 ، ص 151 .
25. إبن حجر ، إنباء ، ج2 ، ص3-4 .
26. العصامي ، سمط النجوم ، ص 263-264 .
27. المقريزي ، السلوك ، ج5 ، ص 221،224 / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج11 ، ص 266-270، المنهل الصافي ، ج3 ، ص 301 / الصيرفي ، نزهة ، ج1 ، ص 194 ،197 .
28. ابن الفرات ، تاريخ ، م9 ، ج 1 ، ص 65 .
29. ابن الفرات ، تاريخ ، م9 ، ج1 ، ص 77 ، 82 / المقريزي ، السلوك ، ج4 ، ص 226 ، ج5 ، ص 228 / العيني ، عقد الجمان ، تحقيق ايمان سكري ، ص 76 / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج11 ، ص 276 / الصيرفي ، نزهة ، ج1 ، 203 ،205 ، 206 .
30. ابن الفرات ، تاريخ ، م9 ، ج1 ، ص 84 .

31. ابن الفرات ، تاريخ ، م9 ، ج1 ، ص 83 ،84 ، 87 ،102-103 / المقريزي، سلوك ، ج5 ، ص 227 ، 228 ، 229 /ابن تغري بردي ، النجوم ، ج11 ، ص 276 ،280 / الصيرفي ، نزهة / ج1 ، ص 203 ،205 ، 207، 209.

32. ابن حجر ، إنباء ، ج2 ، ص 323 .

33. الصيرفي ، نزهة ، ج1 ، ص 209 .

34. ابن الفرات ، تاريخ ، م9 ، ج1 ، ص 83 ، 88 .

35. م ، ن 82 .

36. ابن الفرات ، تاريخ ، م9 ، ج1 ، ص 89 / المقريزي ، السلوك ، ج5 ، ص 232 / المقريزي ، السلوك ، ج5 ، 232 .

37. الصيرفي ، نزهة ، ج1 ، ص 207-208 .

38. ابن الفرات ، تاريخ ، م9 ، ج1 ، ص 89 / العيني ، عقد الجمان ، تحقيق ايمان السكري ، ص 242 .

39. ابن الفرات ، تاريخ ، م9 ، ج1 ، ص 88 .

40. م ، ن ، ص 89 .

41. المقريزي ، السلوك ، ج5 ، ص 332 / العيني ، عقد الجمان ، تحقيق ايمان السكري ، ص 241 .

42. ابن الفرات ، تاريخ ، م9 ، ج1 ، ص 89 .

43. م ، ن ، ص90 .

44. ابن حجر ، إنباء ، ج2 ، ص 323 / العيني ، عقد الجمان ، تحقيق ايمان السكري ، ص 242 .

45. العيني ، عقد الجمان ، تحقيق ايمان السكري ، ص 241-242 .

46. الصيرفي ، نزهة ، ج1 ، ص 209 .

47. ابن الفرات ، تاريخ ، م9 ،ج1 ، ص 91 . ج2 ، ص93 / المقريزي ، السلوك ، ج5 ، ص 233 / العيني ، عقد الجمان ، تحقيق ايمان السكري ، ص 241-242 / الصيرفي ، نزهة ، ج1 ، ص 216 .

48. ابن الفرات ، تاريخ ، م9 ، ج1 ، ص 131 / المقريزي ، السلوك ، ج5 ، ص 250 / ابن حجر ، إنباء ، ج2 ، ص 335-336 / الصيرفي ، نزهة ، ج1 ، ص 244 .
49. ابن الفرات ،تاريخ ، م9 ، ج1 ، ص 91 ،ج2،ص93 / المقريزي ، السلوك ، ج5 ، ص233/ الصيرفي ، نزهة ، ج1 ، ص 216 / العيني ، عقد الجمان ، تحقيق ايمان السكري، ص 241-242 /ابن الفرات ، تاريخ ، م9 ، ج1 ، ص 118 / ابن حجر ، إنباء ، ج2 ، ص332-333 / ابن قاضي شهبة ، تاريخ ، ج3 ، ص 282 / الصيرفي ، نزهة ، ج1 ، ص239 .
50. ابن الفرات ، تاريخ ، م9 ، ج1 ،ص131 .
51. ابن الفرات ، تاريخ ، ج1 ، ص 118 .
52. الصيرفي ، نزهة ، ج 1 ، ص 236 ، 237 .
53. ابن الفرات ، تاريخ ، م9 ،ج1 ، 113 .
54. م ، ن ، ص 121 .
55. م ، ن ، ص 118 .
56. ابن قاضي شهبة ، تاريخ ، ج3 ، ص 276 .
57. ابن الفرات ، تاريخ ، م9 ، ج1 ، ص 103 /الصيرفي ، نزهة ، ج1 ، ص 239 .
58. ابن الفرات ، م9 ، ج1 ، ص 123 .
59. ابن حجر ، إنباء ، ج2 ، ص 332 .
60. ابن الفرات ، تاريخ ، م9 ، ج1 ، ص 124 .
61. م ، ن ، ص 125 .
62. المقريزي ، السلوك ، ج5 ، ص 247 / الصيرفي ، نزهة ، ج1 ،ص240 .
63. ابن الفرات ، تاريخ ، م9 / ج1 ، ص 132 .
64. ابن الفرات ، تاريخ ، م9 ، ج1 ، ص 131 ، 132 ، 136/ المقريزي ، السلوك ، ج5 ، ص250 / ابن حجر ، إنباء ، ج2 ، ص 335-336/ابن تغري بردي ، النجوم ، ج11 ، ص346 / الصيرفي ، نزهة ، ج1 ، ص 217 ، 245 / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج2 ، ص 278 .
65. ابن تغري بردي ، النجوم ، ج12 ، ص 123 .

66. ابن صصري ، الدرة المضية ، ص 61 .
67. م ، ن ، ص 48 .
68. ابن الفرات ، تاريخ ، م9 ، ج1 ، ص 192 / الصيرفي ، نزهة ، ج1 ، ص 289 .
69. ابن الفرات ، تاريخ ، م9 ، ج1 ، ص 193 .
70. م ، ن ، ص 213 .
71. م ، ن ، ص 71 .
72. الصيرفي ، نزهة ، ج1 ، ص 494 .
73. المقريزي ، السلوك ، ج6 ، ص 10 / ابن حجر ، إنباء ، ج4 ، 108-110 / ابن قاضي شهبة ، تاريخ ، ج4 ، ص 70-71 / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج12 ، ص 189 / القاضي عبدالباسط ، نيل ، ج3 ، ص 33 ، 34 .
74. المقريزي ، السلوك ، ج6 ، ص 66/ ابن حجر ، إنباء ، ج4، ص 239 / ابن قاضي شهبة ، تاريخ ، ج4 ، ص 192-193 / ابن تغري بردي ، النجوم ، 12 ، ص 218 .
75. ابن تغري بردي ، النجوم ، ج13 ، ص 109-113 .
76. ابن تغري بردي ، النجوم ، ج12 ، 328 /الصيرفي ، نزهة ، ج3 ، ص158.
77. العيني ، عقد الجمان ، تحقيق عبدالرزاق القرموط ، ص518 / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج9 ، ص 41-42 ،المنهل ، ج4 ، ص 286 / السخاوي ، الضوء ، ج6 ، ص 23 / مجهول ، تاريخ الأشرف قايتباي ، ص 54.
78. ابن تغري بردي ، حوادث ، ج 2 ، ص 421 .
79. م . ن. ص 425 .
80. القاضي عبدالباسط ، الروض الباسم ، ج2 ، ص 74-75 .
81. ابن تغري بردي ، النجوم ، ج16 ، ص 330/ القاضي عبد الباسط ، الروض ، ج3،ص 292 .
82. القاضي عبد الباسط ، الروض ، ج4 ، ص 81 ، نيل ، ج7 ، ص 310 / ابن إياس ، بدائع ، ج3 ، ص 219 .
83. ابن إياس ، بدائع ، ج3 ، ص219 .
84. القاضي عبدالباسط ، نيل ، ج7 ، ص423/ إبن إياس ، بدائع ، ج3، ص219 .

85. إبن إياس ، بدائع ، ج3 ، ص 235-236 .
86. القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج8 ، ص 31 .
87. م ، ن ، ص 55 .
88. إبن إياس ، بدائع ، ج3 ، ص 375 .
89. م ، ن ، ج5 ، 17 .
90. م ، ن ، ج4 ، ص96 .
91. إبن تغري بردي ، حوادث ، ج2 ، ص592/ القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج7 ، ص 310 / إبن إياس بدائع ، ج7 ، ص 310 .
92. إبن تغري بردي ، حوادث ، ج2 ، ص 592 .
93. إبن طوق ، التعليق ، ج4 ، ص 1803 .
94. م ، ن ، ص 1894 .
95. م ، ن، ص1759 .
96. م ، ن ، ص 1899 .
97. إبن طولون ، إعلام الورى ، ص 122 / مفاكهة ، ص212 .
98. إبن طوق ، النعليق ، ج4 ، ص 1631 .
99. م ، ن ، ص 1631 .
100. م ، ن ، ص 1737 .
101. إبن طوق ، التعليق ، ج4 ، ص 1531 / إبن طولون ، مفاكهة ، ص 212 .
102. إبن طولون ، مفاكهة ، ص 216 .
103. إبن الفرات ـ تاريخ ، م9 ، ج1 ، ص 131 / المقريزي ، السلوك ، ج5 ، ص 252 / العيني ، عقد الجمان ، تحقيق عبد الرزاق القرموط ، ص 518 / إبن إياس ، بدائع ، ج 5 ، ص 153 / إبن طولون ، إعلام الورى ، 107، 107 ، 195 ، 203 ، 209 / إبن طوق ، التعليق ، ج3 ، ص 1541 .
104. إبن طوق ، التعليق ، ج1 ، ص 22 ، ج4 ، ص 1669 / إبن طولون ، إعلام الورى ، ص 159 .
105. إبن طوق ، التعليق ، ج4 ، ص 1898 .

106. إبن طولون ، مفاكهة ، ص 145 .
107. إبن طوق ، التعليق ، ج4 ، ص 1625 / إبن طولون ، مفاكهة ، ص 160 .
108. إبن طولون ، مفاكهة ، ص 173 .
109. م ، ن ، ص 268 .
110. إبن ، طوق ، التعليق ، ج4 ، ص 1708 .
111. م ، ن ، ج3 ، ص 1540 .
112. إبن طولون ، مفاكهة ، ص 166 .
113. إبن طولون ، إعلام الورى ، ص 162 .
114. م ، ن ، ص 191 .
115. إبن طوق ، التعليق ، ج4 ، ص 1876 .
116. إبن طولون ، مفاكهة ، ص 208 .
117. إبن طولون ، إعلام الورى ، ص167 ، مفاكهة ، ص 254 .
118. إبن طوق ، التعليق ، ج3 ، ص 1370 .
119. إبن طولون ، مفاكهة ، ص 102 .
120. م ، ن ، ص 160 .
121. م ، ن ، ص166 .
122. إبن طوق ، التعليق ، ج4 ، ص 1732 .
123. إبن طولون ، إعلام الورى ، ص 195 .
124. م ، ن ، ص 183 .
125. إبن طوق ، التعليق ، ج4 ، ص 1824 .
126. م ، ن ، ص 1803 ,
127. م ، ن ، ص 1741 .
128. إبن طولون ، مفاكهة ، ص 248 .
129. إبن طوق التعليق ، ج 4 ، ص 1710 .
130. م ، ن ، 1912 .
131. م ، ن ، ص 1912 .

132. إبن طولون ، مفاكهة ، ص 136 .

133. م ، ن ، ص 151 .

134. إبن طولون ، إعلام الورى ، ص 121 .

135. م ، ن ، ص 138 .

136. م ، ن ، ص 159 .

137. إبن طولون ، مفاكهة ، ص 159 .

138. إبن طوق ، التغليق ، ج4 ، ص 1894 .

139. إبن طوق ، التعليق ، ج4 ، ص 1566 / إبن طولون ، مفاكهة ، ص 151 .

140. إبن طوق ، التعليق ، ج3 ، ص 1541 .

141. م ، ص 1615 .

142. م ، ن ، ص 1592 .

143. م ، ن ، ص 1633 .

144. م ، ن ، ص 1876 .

145. إبن طولون ، إعلام الورى ، ص 127 .

146. م ، ن ، ص 162 .

147. م ، ن ، ص 163 .

148. م ، ن ، ص 175 .

149. إبن طولون ، مفاكهة ، ص 217 .

150. إبن طولون ، مفاكهة ، ص 228 ، إعلام الورى ، ص 183 .

151. إبن طولون ، مفاكهة ، ص 238 ، إعلام الورى ، ص 196 .

152. إبن طولون ، مفاكهة ، ص 268 .

153. م ، ن ، ص 146 .

154. م ، ن ، ص 164 .

155. م ، ن ، ص 178 .

156. إبن طولون، إعلام الورى ، ص 121-122 .

157. م ، ن ، ص 184 . .

158. إبن طولون ، مفاكهة ، ص 159 .
159. إبن طولون ، إعلام الورى ، ص 102 .
160. م ، ن ، ص 137 .
161. إبن طوق ، النعليق ، ج4 ، ص 1531 .
162. م ، ن ، ج3 ، ص 1282 .
163. إبن طولون ، مفاكهة ، ص 168 .
164. م ، ن ، ص 225 .
165. م ، ن ، ص 199 .
166. إبن طولون ، إعلام ، ص 169 .
167. م ، ن ، ص 183 .
168. إبن طولون ، مفاكهة ، ص 267 .
169. إبن طوق ، التعليق ، ج1 ، ص 441 .
170. إبن طولون ، مفاكهة ، ص 164 ، 167 ، 211 ، 254 ، إعلام الورى ، ص 8 ، 173 ، 197 ، 203 .
171. إبن طولون ، مفاكهة ، 165-166 ، إعلام الورى ، ص 111 .
172. إبن طوق ، التعليق ، ج4 ، ص 1731-1732 .
173. م ، ن ، ص 1774 .
174. إبن طولون ، إعلام الورى ، ص 122 .
175. م ، ن ، ص 168 .
176. م ، ن ، ص 184 .
177. م ، ن ، ص 199 .
178. إبن طوق ، التعليق ، ج3 ، ص 1515 .
179. م ، ن ، ص 1568-1576 .
180. م ، ن ، ص 1536 .
181. م ،ن ، ج4 ، ص 1567 .
182. م، ن ، ص 1603 .

183. م ، ن ، ص 1741 .

184. م ، ن ، ص 1631 .

185. إبن طولون ، مفاكهة ، ص 184-185 .

186. م ، ن ، ص 180 .

187. م ، ن ، ص 191 .

188. ابن طولون ، مفاكهة ، ص 203 ، إعلام الورى ، ص 161-162 .

189. إبن طولون ، مفاكهة ، ص 205-206 .

190. إبن طولون ، إعلام الورى ، ص 163 .

191. م ، ن ، ص 167 .

192. م ، ن ، ص 168 .

193. إبن طولون ، مفاكهة ، ص 225-226 .

194. إبن طولون ، إعلام الورى ، ص 195 .

195. إبن طولون ، مفاكهة ، ص 337 .

196. إبن إياس ، بدائع ، ج5 ، ص 84 ، 106 .

197. إبن طولون ، مفاكهة ، ص 334-337 .

198. إبن زنبل ، آخرة المماليك ، 124 .

199. إبن إياس ، بدائع، ج5 ، ص 119 .

200. م ، ن ، ص 141 .

201. م ، ن ، ص 153 .

202. م ، ن ، ص 153 .

203. إبن زنبل ، آخرة المماليك ، ص 176-177 / إبن إياس ، يدائع ، ج5 ، ص 146 .

204. إبن إياس ، بدائع ، ج5 ، ص 156 .

205. إبن طولون ، مفاكهة ، ص 348 ، إعلام الورى ، ص 236 .

206. إبن طولون ، مفاكهة ،361 .

207. م ، ن ، ص 382 .

208. إبن حجر ، إنباء ، ج5 ، ص15 .

209. إبن طوق ، التعليق ، ج3 ، ص 1500 .
210. م ، ن ، ص ، 1519 .
211. م ، ن ، ج4 ، ص 1637 .
212. إبن طولون ، مفاكهة ، ص 151 .
213. م ، ن ، ص 166 .
214. إن طوق التعليق ، ج4 ، ص 1658 .
215. م ، ن ، ص1829 .
216. م ، ن ، ص 1669 .
217. م ، ن ، ص 1894 .
218. م ، ن ، ص 1912 .
219. إبن طولون ، إعلام تاورى ، ص 181 .
220. إبن طولون ، إعلام الورى ، ص 187 .
221. غبن طولون ، مفاكهة ، ص227 .
222. م ، ن ، ص 349 .
223. م ، ن ، ص 189 .
224. إبن طوق ، التعليق ، ج3 ، ص 1437 .
225. البصروي ، تاريخ ، ص 219 .
226. إبن طوق ، التعليق ، ج3 ، ص 1515 .
227. إبن طولون ، إعلام الورى ، ص 195 .
228. إبن طولون ، مفاكهة ، ص 236 .
229. إبن طولون ، إعلام الورى ، ص 205 .
230. إبن طولون ، مفاكهة ، ص 359 .
231. القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج1 ، ص 225 .
232. إبن طوق ، التعليق ، ج3 ، ص 1300 .
233. م ، ن ، ص 1511.
234. م ، ن ، ص 1491 .

.235 م ، ن ، ص 1564-1565 .

.236 إبن طولون ، كفاكهة ، ص 166 .

.237 المقريزي ، السلوك ، ج4 ، ص 327-328 / إبن طوق ، النعليق ، ج1 ، ص 202 / إبن إياس ، بدائع ، ج3 ، ص 403 / الوزان ، وصف مصر ، ص 584-585 .

.238 القاضي عبدالباسط ، نيل ، ج6 ، ص 21 .

.239 إبن طولون، مفاكهة ، ص166 .

.240 إبن طوق، التعليق ، ج3 ، ص 1516 ، ج4 ، ص 1824 .

.241 م ، ن ، ج4 ، ص 1803 .

.242 م ، ن ، ص1824 .

.243 م ، ن ، ج3 ، 1513 .

.244 المقريزي ، الخطط ، ج3 ، ص 175 .

.245 الوزان ، وصف مصر ، ص 583 .

.246 م ، ن ، ص 577 .

.247 م ، ن ، ص 575 .

.248 إبن طوق ، التعليق ، ج4 ، ص 1591 .

.249 م ، ن ، ص 1623 .

.250 م ، ن ، ص1737 .

.251 م ، ن ، ص 1708 .

.252 القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج7، ص 418 .

.253 م ، ن ، ج8 ، ص 68

.254 إبن إياس ، بدائع ، ج3 ، ص 240 .

.255 م ، ن ، ج4 ، ص 224 .

.256 إبن طوق ، التعليق ، ج1 ، ص 524 .

.257 إبن طولون ، إعلام الورى ن ص 94 .

.258 إبن طوق ، التعليق ، ج1 ، ص 462 .

.259 م ، ن ، ج2 ، ص 775 .

260. م ، ن ، ج3 ، ص 1137 .

261. م ، ن ، ج3 ، ص 1487 .

262. م ، ن ، ج3 ، ص 1507 .

263. إبن طولون ، مفاكهة ، ص 147-148 .

264. إبن طوق ، التعليق ، ج4 ، ص 1910 .

265. إبن طولون ، مفاكهة ، ص 150 .

266. م ، ن ، ص 320 .

267. إبن طوق ، التعليق ، ج3 ، ص 1500 .

268. م ، ن ، ج1 ، ص 482 .

269. م ، ن ، ج4 ، ص 2531 .

270. إبن طولون ، مفاكهة ، ص 397 .

271. إبن طوق ، التعليق ، ج3 ، 271 .

272. المبرد ، ذم الهوى ، ص 167-170 / إبن طولون ، مفاكهة ، 148 .

273. إبن الزرقا ، شرح القواعد ، ص 166 .

274. الطحاوي ، شرح معاني ، ج3 ، ص 134 .

275. التونسي ، محمد بن الظاهر ، التحرير والتنوير ، ج19 ، ص 163 .

276. الديوبندي ، فيض الباري ، ج1 ، ص 220 .

277. إبن طوق ، التعليق ، ج4 ، ص 1578 ، 1617 ، 1898 / إبن طولون ، مفاكهة ، ص 160 .

278. إبن تغري بردي ، حوادث ، ج2 ، ص 592 إبن طوق ، التعليق ، ج3 ، ص 1145 ، 1499 / القاضي عبدالباسط ، نيل ، ج5 ، ص464 / إبن ، طواون ، مفاكهة ، ص 160 ، 303 .

279. إبن طوق ، التعليق ، ج3 ، ص 1101 ، 1281 ، 1616 ، 1818 .

280. م ، ن ، ج4 ، 1729 .

281. إبن طوق ، التعليق ، ج3 ، ص 1512 / إبن طولون ، مفاكهة ، ص 102 ، 267 .

282. إبن طولون ، مفاكهة ، ص 212 ، 254 ، إعلام الورى ، ص 169 .

283. القاضي عبدالباسط ، نيل ، ج8 ، ص 11 .

284. إبن طوق ، التعليق ، ج4 ، ص 1737 .

285. إبن طوق ، التعليق ، ج4 ، ص 1696 / القاضي عبدالباسط ، نيل ، ج8 ، ص 215 .

286. إبن طولون ، إعلام الورى ، ص 127 .

287. م ، ن ، ص 189 .

288. إبن طوق ، التعليق ، ج4 ، ص 1737 / إبن طولون ، مفاكهة ، ص 147 ، 179 ، 212 ، 348 ، 364 ، إعلام الورى ، ص 118 .

289. إبن طوق ، التعليق ، ج4 ، ص 1899 .

290. م ، ن ، ج4 ، ص 1532 .

291. م ، ن ، ص 1567 .

292. م ، ن ، ج4 ، ص 1710 .

293. إبن طولون ، مفاكهة ، ص 208 .

294. م ، ن ، ص 242 .

المصادر والمراجع

* إبراهيم مصطفى وغيره ،
المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، دار الدعوة .

* ابن إياس محمد بن أحمد بن إياس الحنفي (ت930هـ م 1524م) :
بدائع الزهور في وقائع الدهور ، 5ج ، ط3 ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1404هـ /1984 م .

* الأزدي أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (المتوفى: 321هـ) :
- الاشتقاق ، ط1 ، تحق عبد السلام محمد هارون ، بيروت ، لبنان ، دار الجيل ، 1411 هـ - 1991 م
- جمهرة اللغة ،3ج ، ط1 ، تحق رمزي منير بعلبكي بيروت دار العلم للملايين ،1987م .

* البصروي علي بن يوسف بن أحمد البصروي (ت905 هـ / 1499م) :
تاريخ البصروي ، ط1 ، دمشق ، دار المأمون للتراث ، 1408 هـ .

* ابن تغري بردي يوسف بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (المتوفى: 874هـ):
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة 16ج ، مصر ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب العلمية ، د ، ت .
- المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ، 7 ج ، تحق محمد محمد أمين ، تقديم سعيد عبد الفتاح عاشور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د . ت .

* التونسي محمد بن الظاهر بن محمد بن عاشور التونسي (ت1393 هـ / 1973م)
التحرير والتنوير تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد ، 30ج ، تونس ، الدار التونسية للنشر ، 1984 م .

* الجواليقي أبو منصور موهوب بن أحمد الخضر :

التكملة والذيل على درة الغواص (مطبوع ضمن درة الغواص وشرحها وحواشيها وتكملتها) ، ط1 ، تح عبد الحفيظ فرغلي قرني ، بيروت ، دار الجيل ، 1996 .

* ابن الجوزي ، جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت597هـ /1201م)
المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ، 19 ج ، ط1 ، تخ محمد عطا ومصطفى عطا ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، 1412 هـ /1992 م .

*إبن حجر شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت 852هـ/1448م):
-إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ ، 9 ج، ط2 ، تح محمد عبدالمعيد خان ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، 1406هـ / 1986م .
- فتح الباري شرح صحيح البخاري ، 3ج ، ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي ، بيروت ، دار المعرفة ، 1379 هـ .

* الديوبندي محمد انور شاهبن معظم شاه الكشميري (ت 1353هـ /1934م) :
فيض الباري على صحيح البخاري ، 6ج ، ط1 ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، 2005 م .

* ابن الزرقا أحمد بن الشيخ :
شرح القواعد الفقهية ، ط2 ، دمشق ، دار القلم ، 1989 م .

* ابن زنبل الرمال (ت 960 هـ /1553م):
آخرة المماليك أو واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني ، تح عبدالمنعم عامر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1998 م .

* السخاوي شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد (المتوفى: 902هـ)
الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ،6ج ، بيروت ، منشورات دار مكتبة الحياة ، د، ت .
وجيز الكلام في الذيل على دول الاسلام ، 4ج ن ط1 ، تحقيق بشار عواد وغيره ، بيروت ، مؤسسة الرسالة 1995 .

* السمين الحلبي أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبدالدائم المعروف بالسمين الحلبي (ت 756 هـ / 1355م) :
عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ ، 4ج ، ط1 ، تح محمد باسل ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، 1996 م .

* الصاعدي عبدالرزاق بن فراج
موت الألفاظ في العربية ، طبعة السنة التاسعة والعشرون العدد السابع ، الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة ، 1418هـ/ 1997 م .

* الصحاري ابو المنذر بن مسلم بن ابراهيم الصحاريالعوتبي (ت 511هـ م1117 م)
أنساب العرب (المكتبة الشاملة) .

* الصفدي ، صلاح الدين خليل بن ايبك بن عبدالله الصفدي (ت 764 هـ / 1363م) :
- الوافي بالوفيات ، 29ج ، بيروت ، دار احياء التراث ، 1420هـ/2000م .
- تصحيح التصحيف وتحرير التحريف ، تح السيد الشرقاوي ، مراجعة رمضان عبدالتواب ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، 1987 .،

* ابن صصرى
الدرة المضية في الدولة الظاهرية ، تحقيق وترجمة وليم برينر ، بيركلي ، جامعة كاليفورنيا ، 1963 م .

* الصيرفي علي بن داود الصيرفي (900هـ /1150م) :
نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان ، 3ج ، تح حسن حبشي ، مطبعة دار الكتب ، الجمهورية العربية المتحدة ، 1971 م .

* الطحاوي أحمد بن سلامة بن سلمة الأزدي الحجري المصري المعروف بالطحاوي (ت321هـ / 933م) :
شرح معاني الآثار ،5ج ، ط1 ، تح محمد النجار ومحمد جاد الحق ، عالم الكتب ، 1994 م .

* ابن طوق أحمد (915هـ/1509 م) :

التعليق يوميات شهاب الدين أحمد بن طوق، 4ج ، ط1 ، تح الشيخ جعفر المهاجر ، دمشق ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق ، 2000 .

* ابن طولون شمس الدين محمد بن علي بن خمارويه بن طولون الدمشقي الصالحي الحنفي (المتوفى: 953هـ)
- مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ،ط1 ، خليل المنصور ، بيروت ،1418 هـ - 1998 م .
- إعلام الورى بمن ولي نائبا من الأتراك بدمشق الشام الكبرى ، ط2 ، تح محمد أحمد دهمان ، دمشق ، دار الفكر ، 1984 م.

* العصامي ، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المكي (المتوفى: 1111هـ) :
سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ، 4 ج ،ط1 ، عادل أحمد عبد الموجود- علي محمد معوض ، بيروت ، دار الكتب العلمية ،1419 هـ - 1998 م .

* العيني محمد بن أحمد بن موساحمد بن حسين العينتابيى الحنفي(ت 855 هـ /1451م) :
-
- السلطان برقوق مؤسس دولة المماليك من خلال مخطوط عقد الجمان ، تح ايمان سكري ، القاهرة ، مكتبة مدبولي ، 2002 .
عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، ط1 ،تح عبدالرازق القرموط ، الزهراء للاعلام العربي ، 1989 م .

* الفارابي أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري (المتوفى: 393هـ) ك
الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، 6 ، ج ، ط4 ، تحق أحمد عبد الغفور عطار ، بيروت ، دار العلم للملايين ،1407 هـ - 1987 م .

* ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ):
البداية والنهاية 15ج، دار الفكر ، 1407 هـ - 1986 م .

* ابن الفرات (ت 807 هـ / 1405 م) :

تاريخ ابن الفرات ، 9ج ، تحرير حسن محمد الشماع ، جامعة البصرة ، كلية الداب .
* الفراهيدي أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم البصري (المتوفى: 170هـ)
كتاب العين ، 8ج ، تحق مهدي المخزومي ، إبراهيم السامرائي ، دار ومكتبة الهلال ،د ،ت .

* القاضي عبدالباسط زين الدين عبد الباسط بن أبي الصفاء غرس الدين خليل بن شاهين الظاهريّ الملطيّ ثم القاهري الحنفيّ (المتوفى: 920هـ) نيل الأمل في ذيل الدول المحقق: 9ج ، ط1 ، تحق عمر عبد السلام تدمري ، بيروت ، لبنان ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، 1422 هـ - 2002 م .

* ابن قاضي شهبة أحمد بن محمد (ت851 هـ / 1447م)
- طبقات الشافعية ، 4ج ، ط1 ، تح عبدالعليم خان ، بيروت ، عالم الكتب ، 1407هـ .
- تاريخ إبن قاضي شهبة ، 4م ، ط1 ، تح عدنان درويش ، دمشق ، المديرية العامة للشؤون الثقافية والعلمية والفنية بوزارة الخارجية الفرنسية ، 1997 .

*الذهبي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايْماز الذهبي (المتوفى: 748هـ):
تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، 52ج ،ط2 ،تحق عمر عبد السلام التدمري ، بيروت ، دار الكتاب العربي، 1413 هـ - 1993 م .
- سير أعلام النبلاء ، 23ج ، ط9 ، تح شعيب الارناؤوط ، محمد العرقسوسي ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، 1413 هـ .

* المبرد يوسف بن عبدالهادي (ت 909هـ / 1503م) :
ذم الهول والذعر في أحوال الزعر والعصبيات وما يحصل ذلك من القتن والبليات ، تح ضميرية أحمد حسن ، السودان جامعة أم درمان ، 2003 ، (رسالة ماجستير غير منشورة) .

* محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : 1393هـ)

التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» ، 30 ج ، تونس ،الدار التونسية

* المرزبان أبُو محمد، عبد الله بن جعفر بن محمد بن دُرُسْتَوَيْه ابن (المتوفى: 347هـ) للتصحيح الفصيح وشرحه ، تحق محمد بدوي المختون ، القاهرة ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، 1998 .

* المرسي أبو الحسن علي بن اسماعيل بن سيدة (ت458 هـ /1066م) :
المحكم والمجيط الأعظم ن 11ج ، ط1 ، تح عبدالحميد هنداوي ، بيروت ، دار الكنب العلمية ، 2000 م .

* المقريزي أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين (المتوفى: 845هـ) :
- السلوك لمعرفة دول الملوك ،8ج ، ط1 ، تحق محمد عبد القادر عطا ، 1418هـ / 1997م .
- الخطط ، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، 4ج ، ط1 ، وضع حواشيه خليل المنصور ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، 1418 هـ /1998 م .
* ابن منظور محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: 711هـ) لسان العرب ،15ج ، ط3 ،بيروت ، دار صادر ، 1414 هـ .

*إبراهيم مصطفى وغيره ، المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، دار الدعوة .

* ميارة أبو عبدالله محمد بن أحمد بن محمد الفاسي (ت 1072 هـ /1661م) :
الاتقان والاحكام في شرح تحفة الحكام المعروف بشرح ميارة ، 2ج ، دار المعرفة . د ، ت .

* الأزهري الهروي محمد بن أحمد بن ، أبو منصور (المتوفى: 370هـ) :
تهذيب اللغة ، 8ج ، ط1 ، تحق محمد عوض مرعب ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، 2001م . *هادي عصام موسى :

صحيح أشراط الساعة ، بيروت الدار العثمانية ، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع ، 2003 م .

* الوزان حسن
وصف افريقيا ، ترجمة عبدالرحمن حميدة ، المملكة العربية السعودية ، جامعة الامام محمد بن سعود ، 1399 ه، .

* مجهول :
تاريخ الاشرف قايتباي ، ط1 ، تح عمر عبدالسلام تدمري ، بيروت ، المكتبة العصرية ،1424 هـ / 2003م .